

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

Vertical line of text or a mark in the center of the page.

« اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ ؛ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »

مقدمة

- الإسلام إيمان وعمل
- مفهوم الإيمان
- وحدة العقيدة
- لماذا كانت العقيدة واحدة وخالدة
- منهج الرُّسل في الدعوة إلى الإيمان
- الانحراف عن منهج الرسل وأثره
- ضرورة العودة إلى تجديد دعوة الإيمان

الإسلام إيمان وعمل

الإسلام هو دين الله الذي أوحاه إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهو إيمان وعمل :

والإيمان يمثل العقيدة ، والأصول التي تقوم عليها شرائع الإسلام ، وغناها تنبثق فروعها .

والعمل يمثل الشريعة ، والفروع التي تعتبر امتدادا للإيمان والعقيدة .

والإيمان والعمل ، أو العقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطاً الشارياً بالأشجار ، أو ارتباطاً المسببات بالأسباب ، والنتائج بالمقدمات .

ومن أجل هذا الترابط الوثيق يأتي العمل مقترناً بالإيمان في أكثر آيات القرآن الكريم .

«وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (١) .

«مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٢) .

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» (٣)

(١) سورة البقرة الآية ٢٥ (٢) سورة النحل آية ٩٦

(٣) سورة مريم آية ٩٦

مفهوم الإيمان أو العقيدة (*)

ومفهوم الإيمان أو العقيدة ينتظم ستة أمور :

أولاً : المعرفة بالله ، والمعرفة بأسمائه الحسنی وصفاته العليا ، والمعرفة بدلائل وجوده ، ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة .

ثانياً : المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة ، أو العالم غير المنظور ، وما فيه من قوى الخير التي تتمثل في الملائكة ، وقوى الشر التي تتمثل في إبليس وجنوده من الشياطين ، والمعرفة بما في هذا العالم أيضاً من جن وأرواح .

ثالثاً : المعرفة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام ، والحسن والقبيح .

رابعاً : المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى ، وقادة الخلق إلى الحق .

خامساً : المعرفة باليوم الآخر ، وما فيه من بعث وجزاء ، وثواب وعقاب وجنة ونار .

سادساً : المعرفة بالقدر الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير .

وحدة العقيدة

وهذا المفهوم للإيمان ، هو العقيدة التي أنزل الله بها كتبه ، وأرسل بها رسله ، وجعلها وصيته في الأولين والآخرين .

(*) العقيدة هي التصديق بالشيء والجزم به دون شك أو ريبه . فهي بمعنى الإيمان ، يقال : أعتقد في كذا أي آمن به . والإيمان بمعنى التصديق . يقال : آمن بالشيء أي صدق به تصديقاً لا ريب فيه ولا شك معه .

فهي عقيدة واحدة ، لا تتبدل بتبدل الزمان أو المكان ، ولا تتغير بتغير الأفراد أو الأقوام .

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (١)

وما شرعه الله لنا من الدين ، ووصَّانا به كما وصى رسله السابقين — هو أصول العقائد وقواعد الإيمان ، لا فروع الدين ، ولا شرائعه العملية ؛ فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها ، وأحوالها ، ومستواها الفكري والروحي .

« لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا » (٢) .

لماذا كانت العقيدة واحدة وخالدة :

وإنما جعل الله هذه العقيدة عامة للبشر ، وخالدة على الدهر ؛ لما لها من الأثر البين ، والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات .

فالمعرفة بالله من شأنها أن تفجر المشاعر النبيلة ، وتوقظ حواس الخير ، وتربي ملكة المراقبة ، وتبث على طلب معالي الأمور وأشرفها ، وتنفأ بالمرء عن محقرات الأعمال وسفاسفها .

والمعرفة بالملائكة : تدعو إلى التشبه بهم ، والتعاون معهم على الحق والخير . كما تدعو إلى الوعي الكامل واليقظة التامة ، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن ، ولا يتصرف إلا أنفاية كريمة .

والمعرفة بالكتب الإلهية : إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان ، كي يصل بالسير عليه إلى كماله المادي والأدبي .

والمعرفة بالرسول : إنما يقصد بها ترسم خطاهم ، والتخلق بأخلاقهم ، والتأسي بهم ، باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة ، والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس .
والمعرفة باليوم الآخر : هي أقوى باعث على فعل الخير ، وترك الشر .
والمعرفة بالقدر : تزود المرء بقوى وطاقات تتحدى كل العقاب والصعاب ، وتضفر دونها الأحداث الجسام .

وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة إنما يقصد بها تهذيب السلوك ، وتركية النفوس وتوجيهها نحو المثل الأعلى — فضلاً عن أنها حقائق ثابتة ، وهي تعد من أعلى المعارف الإنسانية إن لم تكن أعلاها على الإطلاق .
وتهذيب سلوك الأفراد عن طريق غرس العقيدة الدينية هو أسلوب من أعظم الأساليب التربوية .

حيث إن للدين سلطاناً على القلوب والنفوس ، وتأثيراً على المشاعر والأحاسيس ، ولا يكاد يدانيه في سلطانه وتأثيره شيء آخر من الوسائل التي ابتكرها العلماء ، والحكام ، ورجال التربية .

فغرس العقيدة في النفوس ، هو أمثل طريقة لإيجاد عناصر صالحة تستطيع أن تقوم بدورها كاملاً في الحياة ، وتسهم بنصيب كبير في تزويدها بما هو أنفع وأرشد ؛ إذ أن هذا اللون من التربية يُضفي على الحياة ثوب الجمال والكمال ، ويظللها بظلال المحبة والسلام .

ومتى سادت المحبة ارتفعت الخصومة ، وانقطع النزاع ، وحل الوفاق محل الشقاق ، وتقارب الناس ، وتآلفوا ، وسعى الفرد لخير الجماعة ، وحرصت الجماعة على إصلاح الفرد وإسعاده .

ومن ثمَّ تظهر الحكمة واضحة من جعل الإيمان عامّاً خالداً ، وفي أن الله لم يُخلِ جيلاً من الأجيال ، ولا أمة من الأمم ، من رسول يدعو إلى هذا الإيمان وتعميق جذور هذه العقيدة .

وكثيراً ما كانت تأتي هذه الدعوة بعد فساد الضمير الإنساني ، وبعد أن تتعظم كل القيم العليا ، ويظهر أن الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى معجزة تعيده إلى فطرته السليمة ؛ ليصلح لهارة الأرض ، وليقوى على حمل أمانة الحياة .
إن هذه العقيدة هي الروح لكل فرد ، بها يحيا الحياة الطيبة ، وبفقدها يموت الموت الروحي ، وهي النور الذي إذا عمى عنه الإنسان ، ضل في مسارب الحياة ، وتاه في أودية الضلال .

« أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » (١) .

إن العقيدة مصدر العواطف النبيلة ، ومغرس المشاعر الطيبة ، ومنبت الأحاسيس الشريفة ؛ فما من فضيلة إلا تصدر عنها ، ولا صالحة إلا ترد إليها .

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن الصالحات ، إنما يذكر العقيدة في طليعة اعمال البر ، كأصل تنفر عنه ، وكأساس تقوم عليه ، يقول الله سبحانه :

« لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ،

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا . وَالصَّابِرِينَ فِي
الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَّوْا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (١)

منهج الرسل في غرس هذه العقيدة

وكانت الرسل تعرض على الناس هذه العقيدة ، عرضاً كله السهولة والبساطة ،
والمُنطق ، فتَلَفَّت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض ، وتَوَقَّظ عقولهم إلى
التفكير في آيات الله ، وَتَنَبَّهُ فطرتهم إلى ما غُرِسَ فيها من شعور بالتدين ، وإحساس
بعالم وراء هذا العالم المادى .

وعلى هذا السنن مضى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يفرس هذه
العقيدة في نفوس أمته لافْتِنَا الأنظار ، وموجِّها الأفكار ، ومُوقِظاً العقول ،
ومُنَبِّهاً الفِطْرَ ، ومُتمهداً هذا الفراس بالتربية والتنميمة حتى بَلَغَ الغاية من النجاح ،
واستطاع أن ينقل الأمة من الوثنية والشرك إلى عقيدة التوحيد ، ويملاً قلوبها
سبب الإيمان واليقين ، كما استطاع أن يجعل من أصحابه قادة في الإصلاح وأئمة في الخير ،
وأن يخلق جيلاً يعتزُّ بالإيمان ، ويعتصم بالحق ، فكان هذا الجيل كالشمس للدنيا
والعافية للناس ! .

وقد شهد الله لهذا الجيل بالتفوق والامتياز ، فقال :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (٢)

ولقد بلغ الإيمان ببعض هؤلاء الصحابة إلى درجة قال فيها : لو كَشَفَ عَنِّي
الحجابُ لَمَا أزدَدْتُ يُقِينًا .

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ (٢) سورة آل عمران آية ١١٠

وفي حديث الحارث بن مالك الأنصاري رضى الله عنه ما يعطينا الصورة المشرفة لهذا الإيمان .

فقد مر حارثة برسول الله صلوات الله عليه فقال له الرسول :

كيف أصبحت يا حارثة ؟

قال : أصبحت مؤمناً حقاً .

قال : انظر ماذا تقول . فإن لكل شيء حقيقة ، فإحقيقة إيمانك ؟

قال : عرفت نفسي عن الدنيا . فأسهرت ليلتي . وأظمأت نهارى . وكأني

أنظر إلى عرش ربي بارزاً . وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها . وكأني

أنظر إلى أهل النار يتضاغون^(١) فيها .

فقال : عرفت يا حارثة . فالزم^(٢) .

الانحراف عن منهج الرسل وأثره

ومنذ قامت دولة التوحيد على يدي خاتم أنبياء الله ورسوله ، بقيت العقيدة تستمد قدسيها من وحى الله وتعاليم السماء ، وتعتمد أول ما تعتمد على الكتاب والسنة ، وتتجه في الدرجة الأولى إلى تربية الملكات ، وإعلاء الغرائز وتهذيب السلوك ، كي ترفع الإنسان إلى السمو اللائق بكرامته ، وتجعل منه قوة إيجابية في الحياة . ثم كانت الخلافات السياسية ، والاتصال بالمذاهب الفكرية والمذاهب الدينية الأخرى ، وتحكيم العقل فيما لا قدرة له عليه - سبباً في العدول عن منهج الأنبياء . كما كانت سبباً في تحول الإيمان من بساطته وإيجابيته وسموه إلى قضايا فلسفية ، وأقيسة منطقية ، ومناقشات كلامية ، أقرب ما تكون إلى المناقشات البيزنطية .

(١) يتضاغون : يصرخون (٢) رواه الطبراني بسند ضعيف

ولم يعد الإيمان هو الإيمان الذي تزكو به النفس ، أو يصلح به العمل ،
أو ينهض به الفرد ، أو تحيا به الأمة .

ولقد كان من أثر الخلافات السياسية ، والعدول عن نهج الفطرة ، والتأثر
بالمذاهب الفكرة الطارئة ، وتحكيم العقل — أن انقسم حملة العقيدة إلى مدارس
مختلفة ، كل مدرسة منها تمثل لونا مميّنا من التفكير ، وتستأثرُ هي وحدها بالحق
دون غيرها في زعمها ، ومن لم يدخل في دائرة تعاليمها يعدُّ في نظرها خارجا عن
الإسلام :

فمدرسة لأهل الحديث ، ومدرسة للأشاعرة ، ومدرسة للماتريدية ، ومدرسة
للمعتزلة ، ومدرسة للشيعة ، ومدرسة للجهمية — إلى آخر هذه المدارس المختلفة
المتعددة المذاهب والمتنوعة الآراء :

وكلُّ يدعى وَصَلًا بِلَيْلٍ ولبلى لا تُقرُّ لهم بذاكا
إذا اشتبكت دُمُوعٌ في جفونٍ تَبَيَّنَ من بكيٍّ مِمَّنْ تَبَاكَ

وأشهر الخلافات التي وسَّعتِ الهُوَّةَ بين الأمة الواحدة ، هو ما وقع من خلاف
بين الأشاعرة والمعتزلة .

وكان أهم الموضوعات التي تار حولها الخلاف هي ما يأتي :

- (١) هل الإيمان تصديق فقط ، أو هو تصديق وعمل ؟
- (٢) هل صفات الله الذاتية ثابتة ، أو منفية عنه ؟
- (٣) هل الإنسان مُسَيَّرٌ ، أو مُخَيَّرٌ . . . ؟
- (٤) هل يجب على الله فعل الصلاح أو الأصلاح ، أم لا يجب ؟
- (٥) هل الحسن والقبح يعرفان بالعقل أو الشرع ؟

(٦) هل يجب على الله أن يثيب الطائع ، ويعذب العاصي أو لا يجب ذلك ؟

(٧) هل يرى الله في الآخرة . أو أن ذلك مستحيل ؟

(٨) ما حكم مرتكب الكبيرة التي لم يتب منها حتى مات ؟

إلى آخر هذه المسائل التي كانت مثار فرقة بين المسلمين . والتي مزقت الأمة
شيعاً وأحزاباً .

ولقد كان من نتائج هذا التنازع ، ومن آثار هذا الانقسام أن جنى المسلمون
على أنفسهم جنایات خطيرة : فترعزت العقيدة في النفوس ، واهتز الإيمان
في القلوب ، فلم يعد للعقيدة السيطرة على سلوك الأفراد ولم يبق للإيمان السطان
على تصرفاتهم

وتَبِعَ ضَعْفَ الْعَقِيدَةِ الضَّعْفُ الْعَامُ فِي الْفَرْدِ ، وَفِي الْأُسْرَةِ ، وَفِي الْمَجْتَمَعِ ،
وَفِي الدَّوْلَةِ ، وَفِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ ، وَأَخَذَ هَذَا الضَّعْفُ يَدَبٌ فِي كُلِّ
نَاحِيَةٍ ، حَتَّى أَصْبَحَتِ الْأُمَّةُ عَاجِزَةً عَنِ النَّهْوِ بِتَبْعَاتِهَا ، وَالِاضْطِلَاعَ بِمَسْئُولِيَّاتِهَا
دَاخِلِيًّا وَخَارِجِيًّا ، وَلَمْ تَبْقَ الْأُمَّةُ كَمَا أَرَادَهَا اللَّهُ أَنْ تَكُونَ — صَالِحَةً لِقِيَادَةِ الْأُمَمِ
وَهِدَايَةِ الشُّعُوبِ .

وإذا كان سبب تخلف الأمة عن غاياتها الكبرى ، هو ضعف العقيدة كان من
الضروري — ونحن نعمل على إعادة مجد أمتنا — أن نسعى جاهدين في غرس العقيدة
في نفوسنا ، وأن نترسم الخطة التي رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم في تمهدها
بالتربية والتنمية حتى تبلغ غايتها من القوة ، وتصل إلى النهاية من اليقين الذي
يدفعنا إلى مجد الحياة ، ويرفعنا إلى أسمی درجات العز والشرف .

وهذا الكتاب ما هو إلا محاولة من المحاولات التي تبرز جانب العقيدة ،
وتوضح أثرها في النفس وفي الحياة .

وقد اعتمدنا في ذلك على المصدر الأسمى للإسلام من كتاب الله وسنة رسوله
وأملنا في الله عظيم ، ورجاؤنا كبير في أن تلتقي هذه الدراسات من الترجيب
والقبول ما يُمكن لها حتى تكون لنا العقيدة التي نسود بها في الدنيا ، ونسعد بها
في الآخرة . والله الموفق وهو حسبنا ، ونعم الوكيل .

معرفة الله

- وسيلة المعرفة
- المعرفة عن طريق العقل
- التقليد حجاب العقل
- ميادين التفكير وغاياته
- المعرفة عن طريق معرفة الأسماء والصفات
- اسم الله الأعظم

إن معرفة الله ، هي أسنى المعارف وأجلها ، وهي الأساس الذى تقوم عليه الحياة الروحية كلها .

فمنها تفرعت المعرفة بالأنبياء والرسل ، وما يتصل بهم من حيث عصمتهم ووظيفتهم ، وصفاتهم ، والحاجة إلى رسالاتهم ، وما يلحق بذلك من المعجزة والولاية ، والكرامة ، والكتب السماوية .

وعنها تشعبت المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة : من الملائكة والجن والروح .
وعنها انبثقت المعرفة بمصير هذه الحياة ، وما تنتهى إليه من الحياة البرزخية ، والحياة الأخروية : من البعث ، والحساب ، والثواب ، والعقاب ، والجنة ، والنار .

وسيلة المعرفة

وللمعرفة بالله وسيلتان :

إحداها : العقل والنظر فيما خلق الله من أشياء .
وثانيتها : معرفة أسماء الله وصفاته .

فبالعقل من جانب ، وبمعرفة الأسماء والصفات من جانب آخر ، يعرف الإنسان ربه ، ويهتدى إليه .

وَلَنَلْقَ ضَوْءًا عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِّنْ هَاتَيْنِ الْوَسِيلَتَيْنِ :

المعرفة عن طريق العقل

إن لكل عضو وظيفة ، ووظيفة العقل ، هي التأمل والنظر والتفكير ، وإذا تعطلت هذه القوى بطل عمل العقل ، وعطل من أهم وظائفه ، وتبع ذلك

توقف نشاط الحياة مما يتسبب عنه الجمود والموت والفناء . والإسلام أراد للعقل أن ينهض من عقاله ، ويفيق من سباته ، فدعا إلى النظر والتفكير ، وعد ذلك من جوهر العبادة .

« قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » (١)
« قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ وَفْرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا » (٢) .

والذين يمجدون نعمة العقل ، ولا يستعملونه فيما خلق من أجله ، ويفلون عن آيات الله هم موضع التحقير والازدراء ، والله سبحانه يعتب عليهم فيقول :
« وَكَمْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » (٣) .

« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » (٤) .
وتعطيل العقل عن وظيفته يهبط بالإنسان إلى مستوى أقل من مستوى الحيوان ، وهو الذى حال بين الأقدمين وبين النفوذ إلى الحقائق فى الأنفس وفى الآفاق . يقول الله سبحانه :

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (٥) .

(١) يونس : آية ١٠١

(٢) سبأ : آية ٤٦

(٣) يوسف : آية ١٠٥

(٤) يس : آية ٤٦

(٥) الاعراف : آية ١٧٩

التقليد حجاب العقل

والتقليد هو المانع للعقل من الانطلاق ، والمعوق له عن التفكير ، ومن ثم فإن الله يثني على الذين يخلصون للحقائق ، ويميزون بين الأشياء ، بعد البحث والتمحيص فيأخذون ما هو أحسن ، ويدعون غيره :

« فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (١) .

ويندد بالمقلدين الذين لا يفكرون إلا بعمول غيرهم ، ويحمدون على القديم المألوف ، ولو كان الجديد أهدى وأجدى لهم .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » (٢) .

ميادين التفكير

والإسلام حين دعا إلى التفكير ، ورحب به ، إنما أراد أن يكون ذلك في دائرة نطاق العقل وحدود مداركه .

فدعا إلى النظر فيما خلق الله من شيء : في السموات والأرض ، وفي الإنسان نفسه ، وفي الجماعات البشرية ، ولم يحظر عليه إلا التفكير في ذات الله ؛ لأن ذات الله فوق الإدراك .

« تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدرُوا قدره » (٣)

(١) الزمر : آية ١٧ ، ١٨

(٢) البقرة : آية ١٧١

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية مرفوعاً إلى النبي بسند ضعيف ومعناه صحيح

والقرآن الكريم مليء بمئات الآيات الداعية إلى النظر في مجالات الكون الفسيحة وآفاقه الرحبة التي لا تحد بحد، ولا تقف عند نهاية .

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » . (١)

وما أوسع الدنيا التي دعا الإسلام إلى التفكير فيها ، وسعتها ليست بشيء في جانب سعة الآخرة .

غاية التفكير

ومن أجل الغايات التي يريدها الإسلام : من إيقاظ العقل ، واستعمال وظيفته في التأمل والنظر والتفكير هي هداية الإنسان إلى قوانين الحياة ، وعلل الوجود وسنن الكون وحقائق الأشياء ؛ لتكون هذه هي المنارات التي تكشف له عن مبدع الكون وخالقه ، ولتأخذه برفق إلى هذه الحقيقة الكبرى : حقيقة المعرفة بالله . إن معرفة الله إنما هي نتاج عقل ذكي ملهم ، وثمرة تفكير عميق مشرق .

وهذه هي إحدى وسائل القرآن في الدلالة على الله .

إنه يرقظ العقل ، ويفتح أمامه كتاب الطبيعة ؛ ليتعرف منه ما لله من صفات كماله ، ونعوت جلاله ، ومظاهر عظمته ، وأدلة قدسه ، وشمول علمه ، ونفوذ قدرته ، وتفردته بالخلق والإبداع .

لنصنع إلى هذه الآيات في وعي :

« قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُبَشِّرُ كُونَ .

أَمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ
ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَنْ يَهْدِي الْقَوْمَ الْعَادِلِينَ .
أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ آهَارَ رِوَاسِيٍّ وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُوهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا
دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا
مَاتَدَّ كُرُونًا . أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمْ يَدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يَعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا أَمْ يَهْدِيكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ « (١) .

فأى برهان أسطع من هذا البرهان ، وأى حجة أبلغ من هذه الحجة .
وإذا لم يخضع العقل لهذا البرهان ، ويدعن لهذه الحجة ، فإنه لا يخضع لبرهان ،
ولا يدعن لحجة قط .

« وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » (٢) .

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

المعرفة عن طريق معرفة الأسماء والصفات

والوسيلة الأخرى التي اتخذها الإسلام لتعريف الناس بالله ، هي عرض أسماء الله
الحسنى ، وصفاته العليا .

(١) سورة النمل : الآيات ٥٩ إلى ٦٤

(٢) سورة النور : آية ٤٠

فالأسماء والصفات هي الوسائل التي تعرّف الله بها إلى خلقه ، وهي النوافذ التي يعطل منها القلب على الله مباشرة ، وهي التي تحرك الوجدان ، وتفتح أمام الروح آفاقاً فسيحة تُشاهد فيها أنوار الله وجلاله .

وهذه الأسماء هي التي ذكرها الله سبحانه في قوله :

« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » (١) .

وهي التي أمرنا أن ندعوه بها .

« والله الأسماء الحسنی فادعوه (٢) بها » (٣) .

وعدها تسعة وتسعون اسماً . روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة (٤) ، وإن الله وتر يحب الوتر . وزاد الترمذى في روايته :

هو الله (٥) الذى لا إله إلا هو الرحمن (٦) الرحيم (٧) الملك (٨) القدوس (٩)

(١) سورة الاسراء : آية ١١٠

(٢) ادعوه: سموه واذكروه واعبدوه وتقربوا اليه بها .

(٣) سورة الاعراف : آية ١٨٠

(٤) حفظها ووعاها واستحضر معناها واستشعر في نفسه آثارها .

(٥) الله : لفظ الجلالة علم على الذات الالهية المقدسة الواجبة الوجود

المستحقة لجميع المحامد . وأما بقية الأسماء فكل اسم منها يدل على صفة ،

ولهذا صح أن تكون وصفاً للفظ الجلالة وأن يخبر بها عنه .

(٦) الرحمن : المنعم بجلالته .

(٧) الرحيم : المنعم بدقائقها .

(٨) الملك : المتصرف فى ملكه كيفما يشاء .

(٩) القدوس : المطهر من العيوب والنقائص .

السلام (١) . المؤمن (٢) . المهيمن (٣) . العزيز (٤) . الجبار (٥) . المتكبر (٦) . الخالق (٧) .
البارى (٨) . المصور (٩) . الغفار (١٠) . القهار (١١) . الوهاب (١٢) . الرزاق (١٣) .
الفتاح (١٤) . العليم (١٥) . القابض (١٦) . الباسط (١٧) . الخافض (١٨) . الرافع (١٩) .

- (١) السلام : الأمان لخلقته .
- (٢) المؤمن : المؤمن لخلقته من العذاب والمصدق وعده لهم .
- (٣) المهيمن : المسيطر .
- (٤) العزيز : الغالب .
- (٥) الجبار : المنفذ لأوامره والمصلح لشئون عباده .
- (٦) المتكبر : المنفرد بصفات العظمة .
- (٧) الخالق : الموجد للمخلوقات من غير أصل أوالمقدر .
- (٨) البارىء : الخالق لما فيه الروح والموجد لما له أصل .
- (٩) المصور : المعطى لكل شئ صورة تميزه عن غيره . فالخالق الموجد للأشياء ايجادا أوليا ، أوالمقدر ، والبارى المظهر لها ، والمصور الذى أعطاهما الصورة المناسبة .
- (١٠) الغفار : كثير المغفرة وستر الذنوب .
- (١١) القهار : القابض على كل شئ والقاهر لكل الخلائق .
- (١٢) الوهاب : كثير النعم دائم العطايا والمنن .
- (١٣) الرزاق : خالق الأرزاق وخالق أسبابها .
- (١٤) الفتاح : الذى يفتح خزائن رحمته لعباده .
- (١٥) العليم : العالم بكل شئ فلا يغيب عنه شئ .
- (١٦) القابض : قابض الأرواح ، أو مضيق الرزق على من يشاء من عباده .
- (١٧) الباسط : موسع الرزق على من يشاء .
- (١٨) الخافض : الذى يخفض من هو مستحق للخفض بالحزى والذل والعذاب .
- (١٩) الرافع : الذى يرفع من يستحق الرفعة من المتقين .

- المعز^(١) . المذل^(٢) . السميع . البصير . الحكم^(٣) . العدل^(٤) . اللطيف^(٥) .
الخير . الحليم^(٦) . العظيم^(٧) . الغفور^(٨) . الشكور^(٩) . العلي^(١٠) .
الكبير^(١١) . الحفيظ^(١٢) . المقيت^(١٣) . الحسيب^(١٤) . الجليل^(١٥) . الكريم^(١٦)

-
- (١) المعز : يعز من استمسك بدينه ويعطيه النصرة والغلبة .
(٢) المذل : الذى يذل أعداءه .
(٣) الحكم : الحاكم الذى لارادلقضائه ولا معقب لحكمه .
(٤) العدل : العادل الكامل فى عدالته .
(٥) اللطيف : العالم بخفايا الأمور ودقاتها .
(٦) الحليم : الذى لا يستغزه غضب ولا يتعجل بالعقوبة .
(٧) العظيم البالغ أقصى مراتب العظمة لاتصافه بصفات الجلال والجمال .
(٨) الغفور : كثير الغفران .
(٩) الشكور : الذى يعطى الكثير على العمل القليل .
(١٠) العلي : الذى بلغ أعلى المراتب التى لا يتصورها العقل ، ولا يدركها
لفهم .
(١١) الكبير : الذى لاتستطيع الحواس ولا العقول ادراكه .
(١٢) الحفيظ : الذى يحفظ الأشياء من الخلل والاضطراب ، ويحفظ
عمال العباد ، فلا يضيع منها شئ .
(١٣) المقيت : خالق الغذاء الروحى والمساوى .
(١٤) الحسيب : الذى يكفى عباده ، أو الذى يحاسبهم يوم القامة .
(١٥) الجليل : الذى له صفات الجلال لكمال صفاته .
(١٦) الكريم : المعطى من غير سؤال ولا عوض .

- الرقيب^(١) . المجيب^(٢) . الواسع^(٣) . الحكيم^(٤) . الودود^(٥) . المجيد^(٦) .
الباعث^(٧) . الشهيد^(٨) . الحق^(٩) . الوكيل^(١٠) . القوي^(١١) . المتين^(١٢) .
الولي^(١٣) . الحميد^(١٤) . المحصى^(١٥) . المبدى^(١٦) . المعيد^(١٧) . المحيى^(١٨) .

-
- (١) الرقيب : الذى يراقب الأشياء ويلاحظها .
(٢) المجيب : الذى يستجيب للدعاى اذا دعا .
(٣) الواسع : الذى عمت رحمته كل شىء ، ووسع علمه كل شىء .
(٤) الحكيم : صاحب الحكمة لكمال علمه واتقانه كل شىء .
(٥) الودود : المحب الخير لخلقه ، والمحسن اليهم فى كل الأحوال .
(٦) المجيد : البالغ النهاية فى المجد والشرف .
(٧) الباعث : أى باعث الرسل ، وبعث الهمم ، وبعث من فى القبور .
(٨) الشهيد : العالم بكل مخلوق .
(٩) الحق : الثابت الذى لا يتغير .
(١٠) الوكيل : القائم بأمور عباده وسائر ما يحتاجون اليه .
(١١) القوي : صاحب القدرة التامة .
(١٢) المتين : الذى بلغ النهاية فى الشدة .
(١٣) الولي : المتولى أمر خلقه لجه لهم ونصره اياهم .
(١٤) الحميد : المحمود المستحق للثناء .
(١٥) المحصى : الذى لا يغيب عن علمه شىء .
(١٦) المبدى : المظهر للأشياء من العدم .
(١٧) المعيد : الذى يعيدها بعد عد مها .
(١٨) المحيى : خالق الحياة فى كل حي .

لميت^(١) . الحى^(٢) . القيوم^(٣) . الواجد^(٤) . الماجد^(٥) . الواحد . الصمد^(٦) .
القادر . المقتدر . للمقدم^(٧) . المؤخر . الأول^(٨) . الآخر^(٩) . الظاهر^(١٠) . الباطن^(١١)
الوالى^(١٢) . المتعالى^(١٣) البر^(١٤) . التواب^(١٥) . المنتقم^(١٦) . العفو^(١٧) . الرؤوف^(١٨)

-
- (١) الميت : سالب الحياة من الأحياء .
(٢) الحى : صاحب الحياة الدائمة .
(٣) القيوم : القائم بنفسه والمقيم لغيره فيه قامت السموات والأرض .
(٤) الواجد : الذى يجد كل ما أراده . فلا يحتاج الى شىء لغناه المطلق .
(٥) الماجد : مثل المجيد .
(٦) الصمد : الذى يقصد فى الحوائج .
(٧) المقدم : الذى يقدم الأشياء بعضها على بعض فى الوجود ، وفى الشرف ، أو فى الزمان ، أو فى المكان
(٨) الأول : القديم السابق على كل شىء .
(٩) الآخر : الباقي بعد كل شىء .
(١٠) الظاهر : الذى أظهر وجوده بآياته .
(١١) الباطن : الخفى بذاته فلا يعلم ذاته أحد .
(١٢) الوالى : الذى تولى الأشياء وملكها .
(١٣) المتعالى : المنزه عن النقائص
(١٤) البر : كثير البر عظيم الاحسان .
(١٥) التواب : الذى يوفق العصاة للتوبة ، ويقبلها منهم .
(١٦) المنتقم : المعاقب لمن يستحق العقوبة .
(١٧) العفو : المساحى لسيئات من أناب اليه .
(١٨) الرؤوف : عظيم الرأفة والرحمة .

- مالك الملك^(١) . ذو الجلال والإكرام^(٢) . المقسط^(٣) . الجامع^(٤) . الغنى^(٥) .
المغنى^(٦) . المانع^(٧) . الضار^(٨) . النافع^(٩) . النور^(١٠) . الهادى^(١١) . البديع^(١٢) .
الباقي^(١٣) . الوارث^(١٤) . الرشيد^(١٥) . الصبور^(١٦) . جل جلاله .

(١) مالك الملك : الذى تجرى الأمور فى السموات والأرض طبق
مشيئته وإرادته •

(٢) ذو الجلال والاكرام : صاحب الشرف والكمال ومفيض النعم والآلاء

(٣) المقسط : المنصف للمظلومين من الظالمين بعدله •

(٤) الجامع : الذى يجمع شتات الحقائق المختلفة والذى يجمع الناس

يوم الدين •

(٥) الغنى : المستغنى عن كل ما عداه والمقتدر اليه كل ما سواه •

(٦) المغنى : المتفضل باغناء من شاء من خلقه •

(٧) المانع : الذى يمنع أسباب الهلاك •

(٨) الضار : الذى ينزل عقابه بأعدائه •

(٩) النافع : الذى عم خيره البلاد والعباد •

(١٠) النور : الظاهر بنفسه والمظهر لغيره •

(١١) الهادى : الذى هدى وأرشد كل شىء الى ما يحفظ وجوده •

(١٢) البديع : الذى لا نظير له •

(١٣) الباقي : الدائم الوجود •

(١٤) الوارث : الباقي بعد فناء الموجودات •

(١٥) الرشيد : المرشد لعباده ، والذى تجرى تصاريفه لغاياتها بمتنهاى

الحكمة والسداد •

(١٦) الصبور : الذى لا يتعجل بالعقوبة ، ولا يتعجل بشىء قبل أوانه •

وفي كتاب الدين الإسلامي : وأسماء الله الحسنى الواردة في القرآن هي :

- ١ — أسماء متعلقة بذاته تعالى وهي :
الواحد . الأحد . الحق . القدوس . الصمد . الغنى . الأول . الآخر . القيوم .
- ٢ — أسماء متعلقة بالتكوين وهي :
الخالق . البارئ . المصور . البديع .
- ٣ — أسماء متعلقة بصفتي الحب والرحمة فيما عدا رب . ورحمن . ورحيم وهي :
الرؤوف . الودود . اللطيف . الخليم . العفو . الشكور . المؤمن . البار .
رفيع الدرجات . الرزاق . الوهاب . الواسع .
- ٤ — أسماء متعلقة بعظمة الله وجلاله وهي :
العظيم . العزيز . العلى . المتعالى القوى . القهار . الجبار . المتكبر . الكبير .
الكريم . الحميد . المجيد . المتين . الظاهر . ذو الجلال والإكرام .
- ٥ — أسماء متعلقة بعلمه تعالى وهي :
العلی . الحكيم . السميع . الخبير . البصير . الشهيد . الرقيب .
الباطن . المهيمن .
- ٦ — أسماء متعلقة بقدرته تعالى وتديره للأمور وهي :
القادر . الوكيل . الولى . الحافظ . الملك . المالك . الفتاح . الحسيب .
المنتقم . المقيت .
- ٧ — وهناك أسماء أخرى لم تذكر بالنص في القرآن ولكنها استمدت من أفعال
أو صفات له تعالى وردت بالقرآن وهي :
القابض . الباسط . الرافع . المعز . المذل . الجيب . الباعث . المحصى . المبدئ .
المعيد . المحيى . المميت . مالك الملك . الجامع . المغنى . المعطى . المانع .
الهادى . الباقي . الوارث .

٨ - وهناك أسماء أخرى له تعالى مستمدة من المعاني الواردة في القرآن وهي :
النور . الصبور . الرشيد . المقسط . الوالي . الجليل . العدل . الخافض .
الواجد . المقدم . المؤخر . الضار . النافع . ويتصل بذلك صفتا التكلم
والارادة .

اسم الله الأعظم

وكما أن الله هذه الأسماء ، فله اسم أعظم^(١) إذا دعى به ، أجاب وإذا سئل به أعطى ،
جاء ذكره فيما يلي من أحاديث .

١ - عن بريدة رضى الله قال :

« سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ، وهو يقول : اللهم إني
أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد
ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

قال : فقال : « والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به
أجاب ، وإذا سئل به أعطى »^(٢) .

(١) اختلف العلماء فى تعيين اسم الله الأعظم . والراجح من أقوالهم أنه
دعاء مؤلف من عدة أسماء من أسمائه سبحانه إذا دعا به الانسان مع توفير
شروط الدعاء المطلوبة شرعا استحباب الله له . وليس هوسرا من الأسرار الذى
يعطيه الله لبعض الأفراد فتخرق لهم العادات ويحققون ما يعجز غيرهم عن
تحقيقه ، ولا ينبغى أن نزيد شيئا فى كتاب الله وسنة رسوله .

(٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وقال المنذرى : قال
شيخنا أبو الحسن المقدسى هو اسناد لا مطعن فيه ولا أعلم أنه روى فى هذا
حديث أجود منه . وقال الحافظ بن حجر : هذا الحديث أرجح ماورد فى هذا
الباب من حيث السند . ويراجع فقه السنة ج ٢

٢ - وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ورجل قد صلى ^(١) وهو يدعو ويقول في دعائه : اللهم لا إله إلا الله أنت المنان . بديع السموات والأرض . ذو الجلال والإكرام ^(٢) .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« أتدرون بم دعا الله ؟ . دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » ^(٣)

٣ - وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : — اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وفاحة آل عمران : آم الله لا اله إلا هو الحى القيوم » ^(٤)

٤ - وعن سعد بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هل أدلكم على اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ؟ الدعوة التى دعأ بها يونس حيث نادى فى الظلمات الثلاث : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » فقال رجل : يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ورجل قد صلى قال النووي : قال الخطيب : هذا الرجل أبو عباس زيد بن الصامت الأنصارى الرزقى .
(٢) ذو الجلال والإكرام : أى ياذا العظمة والكبرياء وذا الأكرام لأوليائك .

(٣) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٤) رواه أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه وقال الترمذى حديث

« ألا تسمع قول الله عز وجل : « وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ » (١) .

فهذه الأسماء التي تفتح آفاقا واسعة من المعرفة بالله إذا فهمها الإنسان ، وأدرك معناها ، وانفعلت بها نفسه ، وأخذها نبراسا ، فإنها تكشف له عن أكبر حقيقة من حقائق هذا الوجود (٢)

(١) رواء الحاكم

(٢) يظن بعض الناس أن لبعض أسماء الله خواص اذا واظب عليها الانسان حصل له الكثير من الخير والعجائب والحوارق وهذا الظن ليس له سند من الدين •

الذات الإلهية

- استحالة إدراك الذات
- الطبيعة تؤكد وجود الخالق
- الفطرة دليل وجود الله
- دلالة الواقع والتجارب
- التأييد الإلهي
- شواهد النقل
- لا سند للإلحاد
- اعتراف العلماء المحدثين بوجود الله

إن حقيقة الذات الإلهية لا يمكن للعقل معرفتها ، ولا يستطيع إدراك كُنْهِها ؛ لأنها لا تحيط بها الفكرة ، والإنسان لم يعط وسائل إدراكها بعد .

إن العقل البشرى مهما كان مبلغه من الذكاء وقوة الإدراك قاصر غاية القصور وعاجز غاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء .

فهو عاجز عن معرفة النفس الإنسانية ، ومعرفة النفس لا تزال من أعقد مسائل شيء العلم والفلسفة .

وهو عاجز عن معرفة حقيقة الضوء ، والضوء من أظهر الأشياء وأوضحها .
وعاجز عن معرفة حقيقة المادة ، وحقيقة الذرات التي تتألف منها . والمادة ألصق شيء بالإنسان .

ولا يزال العلم يقف عاجزا أمام كثير من حقائق الكون والطبيعة ، لا يستطيع أن يقول فيها الكلمة الأخيرة .

قال العلامة الفيلسوف المشهور (كاميل فلانمر يون) في كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) :

« نرانا تفكر ، ولكن ما هو الفكر ؟ لا يستطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال . ونرانا نمشي ، ولكن ما هو العمل العضلي ؟ لا يعرف أحد ذلك أرى أن إرادتي قوة غير مادية ، وأن جميع خصائص نفسي غير مادية أيضا ، ومع ذلك فتي أردت أن أرفع ذراعي ، أرى أن إرادتي تحرك مادتي ، فكيف يحدث ذلك ، وما هو الوسيط الذي يتوسط للقوى العقلية في إنتاج نتيجة مادية ؟

لا يوجد من يستطيع أن يبينني عن هذا أيضا ، بل قل لي : كيف يتقل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقل ؟ .

وقل لي : كيف يدرك العقل هذا ؟

وأين مستقره ؟ وما هي طبيعة العمل الخفي ؟ .
قولوا لي أيها السادة (يريد للملحدين) . . . ولكن كفى كفى ! فإني أستطيع
أن أسألكم عشر سنين ، ولا يستطيع أكبر رأس فيكم أن يجيب علي أحقر أسئلتى «
فاذا كان موقف العقل هكذا حيال النفس والضوء والمادة ، وما في الكون المنظور
وغير المنظور من أشياء ، فكيف يتطلع إلى معرفة ذات الباري جل شأنه ، ويحاول
إدراك كنهه ! . . .

إن ذات الله أكبر من أن تدركها العقول ، أو تحيط بها الأفكار وما أصدق
قول الله سبحانه :

« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (١)

العجز عن معرفة حقيقة الأشياء لا ينفى وجودها

وقصور العقل ، وعجزه عن إدراك حقيقة الأشياء لا ينفى وجودها .
فمعجزه عن إدراك حقيقة النفس لا ينفى أنها موجودة ، ومعجزه عن إدراك حقيقة
الضوء لا ينفى وجود ضوء يعم الآفاق ، ومعجزه عن إدراك كنه الذرة لا ينفى أن ثمة
ذرات تتكون منها المادة ، وهكذا سائر الأشياء التي يقصر العقل عن إدراك حقيقتها
ويعجز عن معرفة كنهها

ومثل ذلك الذات الإلهية إذا عجز الإنسان عن إدراك حقيقتها ، فليس معنى ذلك
أنها غير موجودة ، بل هي موجودة كأقوى ما يكون الوجود .

إن وجوده سبحانه في حكم البدهيات الأولية ، والمسلمات العقلية ، وما كان كذلك
لا يطالب بإقامة الدليل عليه ، إلا المكابر ، كالأعمى الذي يطلب إقامة الدليل على
وجود الشمس أثناء النهار ، ومع ذلك فنحن نسوق من الأدلة ما يهتدي إلى الحق
ويكشف عن وجه الصواب .

الطبيعة تؤكد وجود الخالق

إن وجود الله حقيقة لا شك في أمرها، ولا مجال لإنكارها، فهو ظاهر كالشمس باهر كفلق الصبح، وكل ما في الكون شاهد على هذا الوجود الإلهي، ومواد الطبيعة وعناصرها تؤكد أن لها خالقاً ومدبراً.

فالعالم العلوي، وما فيه من شمس وأقمار ونجوم وكواكب، والعالم الأرضي وما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد، والترابط الوثيق، والتوازن الدقيق، الذي يؤلف بين هذه العوالم، ويحكم أمرها — ما هو إلا آية وجود الله، ومظهر تفردته بالخلق، ولا يتصور العقل أن توجد هذه الأشياء بدون موجد، كما لا يتصور أن توجد الصنعة بدون صانع.

فإذا كان العقل يحيل أن تطير طائرة في الهواء، أو نفوس غواصة في الماء، دون أن يكون فيه صانع للطائرة، ومنشئ للغواصة، فإنه يحزم جزماً قاطعاً باستحالة وجود هذا الكون البديع، وهذه الطبيعة الجميلة من غير خالق خلقها، ومدبر دبر أمرها.

إن ثمة فروضاً ثلاثة يمكن أن نفرضها في تعليل الأصل الذي صدر عنه الكون، وليس ثمة فرض وراء هذه الفروض.

الفرض الأول: أن يكون صدور هذا الكون من العدم.

الفرض الثاني: أن تكون الصدفة وحدها هي التي نشأ عنها هذا الكون البديع.

الفرض الثالث: أن يكون ثمة موجد أوجد هذا الكون، وأنشأه.

ولنمض في مناقشة كل فرض من هذه الفروض:

فالفرض الأول باطل من أساسه ؛ لأن المسببات مرتبطة بأسبابها ، والنتائج مرهونة بمقدماتها .

ولا يتصور العقل أن يوجد معلول بدون علة ، ولا مسبب دون أن يسبق بسبب ، ولا نتيجة من غير أن يكون لها مقدمات .

فصدور الكون من العدم معناه وجود المعلول بدون علة ، والمسبب دون سببه ، والنتيجة دون مقدماتها : أى أن الكون وجد من نفسه وصادر منقطعاً عن سببه .
ووجود الأشياء من نفسها منقطعاً عن أسبابها محال عقلاً وواقعاً ؛ لأن وجود الأشياء من نفسها مع انقطاعها عن أسبابها ترجيح لجانب الوجود على جانب العدم بدون مرجح ، وترجيح جانب الوجود على جانب العدم بدون مرجح محال .
إننا إذا قلنا : إن الكون وجد من نفسه منقطعاً عن سببه كان ذلك مساوياً لقولنا : بأن العدم سبب الوجود .

وهذا غاية في البطلان ؛ لأن العدم لا يتصور أن يكون مصدراً للوجود ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة .
« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ » (١)

أى هل وجدوا من غير خالق ! ؟ أم خلقوا أنفسهم ، فلا يحتاجون إلى أحد يخلقهم !؟ . وكل هذا مستحيل .

والفرض الثانى : وهو أعظم تهافتاً من الفرض الأول ، فإن الصدفة لا يمكن أن

ينبتق عنها هذا النظام ، ولا أن يصدر عنها هذا الإحكام ، فهل الصدفة هي التي خلقت الذكر والأنثى ، وألفت بينهما هذا التأليف الجميل ؟ وهل هي التي خلقت الأرض . وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد ؟ وهل الصدفة هي التي علقت الأرض في الهواء وسيرتها في مدارها الذي لم تنحرف عنه قيد شعرة منذ ملايين السنين ؟ وهل الصدفة هي التي سيرت الكواكب والنجوم مع ضخامتها وكثرتها بهذه السرعة المذهلة دون أن تتصادم ؟ وهل الصدفة هي التي أوادت العناصر التي يتألف منها الكون ، وهي التي تُدَسِّقُهَا تَدَسِّقًا دَقِيقًا صالحًا للاستمرار والدوام إلى المدى الذي أراده الله ؟

إن الذرة وهي أصغر الأشياء يحار العقل والعلم في تركيبها المحكم وتناسقها العجيب ، وتآلف أجزائها بعضها مع بعض ، فهل هذا التركيب والتأليف والتناسق صدفة ؟ لنستمع إلى كلمة العلم في الذرة :

« تتألف المادة من ذرات لا يمكن رؤيتها بأقوى المجاهر (الميكروسكوب) ولكي نتصور حجم الذرة علينا أن نتصور أننا لو رصنا مائة مليون ذرة جنباً إلى جنب لبلغ طولها بوصة تقريباً ، ومن ناحية أخرى يوجد في قطرة من مياه البحر خمسون مليون ذرة من الذهب .

وتتألف الذرة من نواة تدور حولها كهارب سلبية (الالكترونات) في أفلاك مستديرة ، وبين الاثنين فراغ يشبه الفراغ بين الكواكب والشمس من حيث النسبة بين الحجم والأبعاد .

ويبلغ وزن أخف نواة ١٨٥٠ ضعف وزن الألكترون ، ولو رصت عشرون ألف نواة جنباً إلى جنب لبلغ طول قطرها قطر الذرة ، أو بمقابلة أخرى نسبة النواة إلى الذرة كراس الدبوس بالنسبة إلى منزل متوسط الحجم .

وتدور الألكترونات حول النواة في أفلاك كأفلاك الكواكب إذ تدور حول الشمس ، ولكن هذه الأفلاك أكثر حساسية وأقل تحديداً من أفلاك الكواكب ، ولو أن المادة المؤلفة من النوى الذرية مكدسة مع بعضها أى بدون الفراغ الموجود بين النواة والألكترونات لبلغ وزن قطعة نقدية في حجم القرشين حوالى ٤٠ مليون طن .

وتتألف النواة من كهارب موجبة (بروتونات) يساوى عددها عدد الكهارب السالبة (الألكترونات) التى تدور حول النواة - ويوجد إلى جوار البروتونات كهارب أخرى متعادلة الشحنة تسمى نيوترونات ، ولو استطعنا أن نخلخل من هذه الرابطة التى تربط بين البروتونات والنيوترونات ، أو بالأحرى لو استطعنا أن نهيبء السبل لهروب نيوترون واحد من مجموع النيوترونات التى تحيط بالبروتونات إذن لانطلقت طاقة كبرى كان اينشتين أول من قدرها بأنها تساوى الكتلة فى مربع سرعة الضوء مقدراً بالسنتى متر فى الثانية . » (١)

فإذا انتقلنا من الذرة ، ورفعنا رؤوسنا إلى الشمس رأينا العلم يقول :

« الشمس هى كرة متأججة بنار أشد وطياً من كل نار على الأرض ، وهى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة ، أما بعدها عنا فنحو ٩٢ر٥٠٠ر٠٠٠ ميل ، هذا وإن هى إلا نجمة ، وليست هى فى عداد النجوم الكبرى .

وهناك مشكلة أخرى أعبي حلها النهائى عقول العلماء والفلكيين ، هى أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تنزل تشع نفس المقدار أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين ، فإن كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها ، فكيف لم تفن مادتها مع توالى العصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف ، وإلا لكفاها ٦٠٠٠ سنة لتحترق ، وتنفذ حرارتها .

(١) مستقبلنا الذرى - تأليف ادوارد تيللر والبرت لانر - الطاقة الانسانية

« أما فضل الشمس علينا ، فليس أنها مصدر نورنا ونارنا فقط ، بل هي محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضاً ، فهي التي تبخر مياه البحر ، وترفعها غيوماً في الجو ، وتبزها أمطاراً على الأرض ، حيث تجرى جداول وأنهاراً تروى زرعنا وتنمى أغراسنا ، وتثير الرياح ، وتهيج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه ، وترجى السفن والمراكب في عُباب المحيط ، وهي التي تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما الفحم الحجري إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الأدهار ؛ لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ، ولا لنبات ؛ فالحيوانات تنتفش بجزراتها ، والأطيوار تفرد بأنوارها ، وتسبح تسبيحاً ، وبجزراتها وأنوارها تبرزغ النباتات ، وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار ، وتنضج الأثمار فتحن مدينون للشمس بما كلنا ومشر بنا ، وهي علة وجودنا على هذه الأرض » .

فإذا تجاوزنا الشمس وجدنا أن :

« أقرب نجم إلينا بعد الشمس يعادل بعده ٢٦٠٠٠٠٠ مرة بعد الشمس عنا . ويعتبر هذا شيئاً ضئيلاً جداً بالنسبة لنجوم المجرة التي أسماها القدماء « طريق التبانة » . بل تعتبر المجموعة الشمسية ذرة إذا قيست بالمجرة ؛ إذ أنها تحتوى على مائة مليون نجم موزعة فيما يشبه القرص المفرطح الرقيق نسبياً .
ويقول هيربرت سبنسرجونز مؤلف كتاب « الفلك العام »

« إن الضوء يستغرق مائة ألف سنة ضوئية ليصل بين طرفي المجرة ، ومعلوم أن الضوء يسير بسرعة ١٧٦٠٠٠ ألف ميل في الثانية ، أو ٣٠٠٠٠٠٠ ألف كيلومتر . وعلى هذا فإن السنة الضوئية تعادل عشرة ملايين مائة مليون كيلومتر .

وليست هذه المجرة التي تبلغ هذا الحد من الضخامة التي لا يقوى العقل على استيعابها إلا واحدة من كثيرات لم يحصها المد .

وبقى أن نعرف أن أقرب مجرة لجزراتنا تبعد سبعمائة ألف سنة ضوئية^(١) .

أفبعد هذا يتصور العقل أن يكون ذلك ناشئاً بطريق الصدفة ؟

إن القول بالصدفة في خلق الكون لا يتصوره العقل ، ولا يقره العلم ، ولا يقوله إنسان إلا إذا فقد أخص خصائصه من الإدراك والتمييز .

قال الفيلسوف الألماني ادوارد هارتمان خليفة شوبنهاور في كتابه المذهب الدرؤي : « إن الرأي الذي مقتضاه عدم وجود القصد في الكون عند الداروينيين لا يقوم عليه دليل ، وهو من الأوهام التي لا أساس لها من العلم » .

وقال الأستاذ فون باير الألماني في كتابه دحض مذهب دارون : « وإذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهورى بأنه لا يوجد قصد في الطبيعة ، وأن الكون لا تقوده إلا ضرورات عمياء ، فأنا أعتقد أن من واجباتى أن أعلن عقيدتى في ذلك وهى أنى على العكس أرى جميع هذه الضرورات تكشف عن أغراض سامية » قال الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى رحمه الله بعد أن ذكر هذا الكلام الأخير : « ولو شئنا الاستئناس بمئات من أقطاب العلم والفلسفة على رأى عدم وجود القصد في الخليفة لما كلفنا ذلك أكثر من النقل » .

ومتى ثبت وجود القصد في الكون ، فقد ثبت وجود المدبر الحكيم جل وعلا من طريق محسوس لا سبيل للجدل فيه مصداقاً لقوله تعالى :

« أَلَيْسَ لِلَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »^(٢)

وإذا لم يصح الفرض الأول ، ولا الفرض الثانى ؛ لأنهما خارجان عن دائرة العقل والمنطق والعلم لم يبق إلا الفرض الثالث :

(١) قصة الكون من السديم الى الانسان من كتاب الطاقة الانسانية

(٢) سورة ابراهيم آية ١٠

وهو أن لهذا الكون خالقاً ومدبراً ، وهذا هو مقتضى العقل والمنطق السليم
الذى دعا سقراط إلى الإيمان بالله ، وإحمام اريستوديم الذى ينكر الألوهية فى المحاوره
التي نذكرها فيما يلي :

سقراط : أوجد رجال تعجب بمهارتهم وجمال صنائعهم ؟
إريستوديم : نعم أعجب فى الشعر القصصى بهوميير ، وفى التصوير بزوكيس ،
وفى صناعة التماثيل بيوليكتيت .
سقراط : أى الصناع أولى بالإعجاب ، الذى يخلق صوراً بلا عقل ولاحرك
أم الذى يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟
إريستوديم : طبعاً الذى يبدع الكائنات المتمتعه بالعقل والحياة إذا لم تكن
من نتائج الاتفاق .

سقراط : وهل يمكن أن يكون من الاتفاق أن تعطى الأعضاء لمقاصد
وغايات خاصة ، عين ترى ، وأذن تسمع ، وأنف يشم ، ولسان
يتذوق ، والعين تحاط بحراسة لحساسيتها وضعفها ، فتثقل عند
النوم ، أو عند الحاجة ، وتحرس بالرموش والحواجب ، ويجعل
للأذن جهاز خارجى يجمع لها الصوت ، وهل يمكن أن يكون
كل ذلك من نتائج الاتفاق ؟

والميل المودع فى النفوس للتناسل ، والحنان المخلوق فى قلوب
الأمهات بالنسبة للأولاد ، مع ندره أن ينفع ولد أباه أو أمه ،
والطفل الذى يلهم الرضاعة بمجرد ولادته .

هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق ؟

إرستوديم: لا ، إن ذلك يدل على الإبداع وعلى أن الخالق عظيم يجب الكائن
الحى ، ولكن لماذا لا نرى الخالق ؟

سقراط : وأنت أيضاً لا ترى روحك التى تتسلط على أعضائك ، فهل معنى
هذا أن نقول إن أفعالك صادرة عن اتفاق وبدون إدراك ؟

وصدق الله العظيم الذى يقول :

« وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » (١)

الفطرة دليل وجود الله

والكون ومافيه من نظام ، وإحكام ، وجمال ، وكمال ، وتناسق ، وإبداع ، ليس
هو وحده الشاهد الوحيد على وجود قيوم السموات والأرض ؛ وإنما هناك شاهد آخر ،
وهو الشعور المغروس فى النفس الإنسانية بوجوده سبحانه ، وهو شعور فطرى فطر
الله الناس عليه ، وهو المعبود عنه بالفريزة الدينية ، وهو المميز للإنسان عن الحيوان ،
وقد ينفو هذا الشعور بسبب ما من الأسباب ، فلا يستيقظ إلا بمثير يبعث على
يقظته من ألم ينزل ، أو ضرر يحيط ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة :

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِحَنِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ » (٢)

(١) سورة فصلت آية ٣٧

(٢) سورة يونس آية ١٢

دلالة الواقع والتجارب

وإذا كان النظر العقلي في الكون وأسراره يهدى إلى البارى جل شأنه ، وإذا كان الشعور الفطرى شعوراً أصيلاً في النفس الإنسانية ، يستوى فيه العالم والجاهل ، والحضرى والبدوى ، والرجال والنساء ، والأولون والآخرون ، فإن ثمة دليلاً آخر مأخوذاً من واقع الإنسان وتجاربه ، فكم دعا الإنسان ربه ، فأجاب دعاه ، وكم ناداه ، فلبى نداءه ، وكم سأله فأعطاه ، وكم توكل عليه فكفاه ، وكم من مرض شفاه منه ، وكم من ألم خفنه عنه ، وكم من رزق ساقه إليه ، وكم من كربة فرجها ، وكم من غمة كشفها .

إن تجارب الإنسان في الحياة تأخذ بيده ، وتوصله إلى الله مباشرة ؛ لأنها تكشف له عن الحقيقة التي لم يستطع أن يلمسها بحواسه والتي تدبر الكون ، وتسيّره وفق نظام محكم وقانون مطّرد ، وما من إنسان إلا وقد وقع له في حياته من التجارب ما عرفه بالله ، وهداه إليه ، وأوقعه عليه .

فكثيراً ما يفقد الإنسان جميع الأسباب المادية التي تجلب الخير له ، أو تدفع الشر عنه ، فإذا توجه بقلبه إلى رب كل شيء ومليكه تحقق له من الخير ما يصبو إليه واندفع عنه من الشر ما يخاف منه دون سبب ظاهر ، أو تعليل معقول فبماذا تفسر هذه الظواهر ؟

وهل لها تفسير سوى أن من ورائها رب الأرباب ومسبب الأسباب .

التأييد الإلهي :

ومن دلائل الوجود الإلهي أن المؤمنين بالله إيماناً حقيقياً أعلى من غيرهم علماء وأكثر أدباً ، وأزكى نفساً ، وأطيب قلباً ، وأكثر نضحية ، وأعظم إيثارةً وأنفع الناس للناس ،

فما الذى غير طباعهم ونمراثرهم وميولهم ، ووجهها وجهة الحق والخير والجمال والكمال ؟
لماذا لم يكونوا مثل غيرهم ممن لا يؤمنون بالله من غلاظ الجهل ، وجفاء
الطبع ، وخبث النفس ، وظلمة القلب ، وفساد الخلق ، وحيوانية فى المطالب
والمآرب ؟ لا بد وأن يكون وراء ذلك سر .

وهل فيه سر غير أن المؤمنين بالله يمدح بالقوى التى تصحح إنسانيتهم ليصلوا
إلى أقصى ما قدر لهم من كمال ، فهذا التغير فى نفوس المؤمنين وصفاتهم وأخلاقهم
وميولهم أدل دليل على وجود قوى روحية خفية تعمل عملها فى صمت ، وتظهر
آثارها جليلة فى سلوك المؤمنين بها ، الواصلين حباهم بحبالها .

شواهد النقل

ومما يستشهد به على الوجود الإلهى الحقيقى أن المصطفين من العباد ، والأخيار
من الناس ، نادوا فى الناس من عهد آدم إلى عهد محمد ، عليهم صلوات الله وسلامه ،
بأن لهذا الكون إلهاً حكماً ، وأجمعوا على ذلك .

وقد قامت الشواهد على صدقهم من تأييد الله لهم ، وكبت أعدائهم ، وجعل كلمة
الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فأى دليل أبغ من قول الصادقين مع الله
والمخلصين له ، والداعين إليه ، والمتفانين فيه ، والمؤبدين به .

لا سند للحاح

وأخيراً نقرر أنه لم يثبت من ناحية العقل ، ولا من ناحية العلم أى دليل يمكن
الاستناد إليه فى نفي وجود الله ، وكل ما ذكره الملحدون ما هو إلا وهم لا يستند
إلى منطق سليم ، ولا علم مكين .

وليس هذا الإلحاد بجديد على الناس ، ولا هو من مبتكرات هذا العصر ، وإنما
هو قديم ، وقديم جداً ، قاومه الأنبياء عبر الأجيال والمصور . يقول القرآن الكريم .

« وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » (١) .

فهل ثمة فارق بين ما قاله الأولون في عصر الجاهلية ، وبين ما يقوله الآخرون في العصر الذي يتحدثون عنه بأنه عصر النور والعرفان ؟

على أن العصر الذي بلغ فيه العلم شأواً لم يصل إليه من قبل ، لم يستطع أن ينكر وجود الله ، بل إن علماءه من أشد الناس إيماناً بالله ، ولا يزيد بالعلماء السطحيين من أدعياء العلم ، وإنما تقصد العلماء الحقيقيين .

ومما يؤدي هذا الذي نقوله مانشره الدكتور دينرت Denret من بحث حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء بقصد أن يعرف عقائدهم ، فتبين له من دراسة ٢٩٠ عالماً ، أنهم بالنسبة للعقيدة الدينية كما يلي :

٢٤٢ من هؤلاء أعلنوا إيمانهم الكامل بالله .

٢٨ لم يصلوا إلى عقيدة .

٢٠ لم يهتموا بالتفكير الديني (٢) .

وهكذا نجد أغلبية ساحقة تزيد عن ٩٠ ٪ يعلنون إيمانهم بالله عن طريق أبحاثهم العلمية ، ونجد من سواهم لا يزالون في تردد ، أو لم يهتموا بالعقيدة الدينية في أبحاثهم ، وأغلب الظن أن المترددين سيصلون يوماً ، وأن الآخرين الذين لم يهدم العلم لساحة الله يعانون نقصاً ، لو تخلصوا منه لوصلوا .

ونحنم هذا للبحث عن الدليل العقلي على وجود الله بأقوال مشاهير العلماء :
يقول هرشل العالم الفلكي الإنجليزي : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين

(١) سورة الجاثية آية ٢٤

(٢) نقلاً عن مجلة الأزهر المجلد ٢٩ عن كتاب الاسلام للدكتور أحمد

الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية ، فالجيولوجيون والرياضيون والفلسكيون والطبيعيون قد تماووا ، وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده^(١) .

ويقول الدكتور وتز الكياوى الفرنسى : إذا أحسست فى حين من الأحيان أن عقيدتى بالله قد ترعزعت وجهت وجهى إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها^(٢) .
ويقول فولتير ساخراً : « لم تشككون فى الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى وسرقنى خادمى » ؟!

(١) دائرة معارف «وجدى» مادة اله ج ١ ص ٥٠٣

(٢) مجلة الأزهر المجلد ١٩

صفات الله

- الصفات السلبية
- الصفات الثبوتية
- صفات الذات والأفعال
- صفات الله أعلام هادية

والله سبحانه الموجود للكون له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، التي هي من مقتضيات كمال ربوبيته . وعظمة أوهيته .

وهذه الصفات قد تفرد بها الخالق ، فلا يشاركه فيها شريك ؛ لأنه وحده هو الرب والإله ، فلا رب غيره ، ولا إله إلا الله .
وهذه الصفات منها صفات سلبية^(١) ، ومنها صفات ثبوتية .

الصفات السلبية

أما الصفات السلبية فهي :

الأول والآخِر

فالله سبحانه هو الأول : ومعنى أوليته : أنه سبحانه لا أول لوجوده ، وأن وجوده غير مسبوق بعدم .

وأنه هو الآخر : ومعنى آخريته : أنه سبحانه لا آخر لوجوده ، وأنه باق إلى ما لا نهاية ، فهو سبحانه أزلي وأبدى . لا يسبقه عدم ، ولا يلحقه فناء ؛ لأنه واجب الوجود ؛ يقول الله سبحانه :

« هُوَ الْأَوَّلُ^(٢) وَالْآخِرُ^(٣) وَالظَّاهِرُ^(٤) وَالْبَاطِنُ^(٥) وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٦) »

ويقول :

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ^(٧) »

(١) هي التي سلبت عن الله ما لا يليق بكماله .

(٢) الأول : السابق في الوجود كل الموجودات من غير سبق العدم .

(٣) الآخر : الباقي بعد فناء الموجودات .

(٤) الظاهر : بآثاره الدالة على وجوده .

(٥) الباطن : هو الذي لا تدركه الحواس ولا تحيط به العقول .

(٧) سورة القصص آية ٨٨

(٦) سورة الحديد آية ٣

ويقول :

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »^(١)

وروى البخارى والبيهقى عن عمران بن الحصين قال :

« إني عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى^(٢) يا بني تميم ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم . قالوا : قبلنا . جئنا لتتفقه في الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟

قال : كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء^(٣) . »

والذكر هو اللوح المحفوظ ، وهو خالق عظيم من خلق الله ، سجل الله فيه جميع الكائنات التي قدرها ، أو هو عبارة عن علم الله المتعلق بسائر الموجودات : كليها وجزئها ، صغيرها وكبيرها .

ومعنى قوله وكان عرشه على الماء : أن العرش في جهة العلو ، والماء تحته في جهة السفلى ، وليس معناه أنه ملاصق للماء محمول عليه . كما يقال السماء على الأرض . أى أنها فوقها دون ملاصقتها لها .

بدء الخلق في رأى علماء الشرع

ويظهر من الأحاديث أن العرش هو أول المخلوقات العلوية ، وأن الماء هو أول المخلوقات المادية ، وأنه خلق قبل العرش كما رواه أحمد والترمذى . . .

وبعد خلق العرش والماء خلق الله السموات والأرض .

(١) سورة الرحمن آية ٢٧ و٢٨

(٢) البشرى : هى أن من أسلم نجا من الخلود فى النار

ويظهر أيضاً من الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي أن أول المخلوقات المعنوية القلم ، فقد روي عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

وأما ما روي من أن أول المخلوقات العقل ، فلم يثبت هذا الحديث ، وكذلك حديث « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » .

وليس ثمة دليل يمكن التمويل عليه في أصل الكائنات من جهة الشرع .

بدء الخلق في رأى علماء الفلك وطبقات الأرض

وعلماء الفلك وطبقات الأرض يتفقون مع علماء الشرع في أن الكون حدث ، وتطور بعد أن لم يكن ، ولكنهم يختلفون عنهم في بداية هذا الحدوث وتطوره ، فالشرع لا يتحدث عن ذلك ، بينما هم يقولون كما جاء في كتاب تاريخ الأرض « لجورج جامبو » ، إن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة . أما الأرض فقد نشأت حديثاً جداً إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين فقط ، وظهرت الحياة على الأرض منذ بليون سنة . والحيوانات البرمائية منذ ٢٠٠ مليون سنة . أما الحيوانات الثديية التي يعتبر الإنسان أحد فروعها ، فقد بدأ ظهورها على الأرض منذ ١٢٠ مليون سنة .

والإنسان هو أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ

٥٠ مليون سنة .

والله أعلم بحقيقة ذلك .

ولا يصح أن يقال : إن الله خلق الخلق ، فمن خلقه ؟ لأن هذا السؤال خطأ ؛ لأن

الخالق لا يكون مخلوقاً ؛ لأنه لو كان مخلوقاً لاحتاج إلى خالق ، وهكذا إلى ما لا نهاية
وعقولنا القاصرة لا تدرك حقيقة نفسها ، فكيف بحقيقة الذات الإلهية وقد نهينا
أن نبحث فيها ، ففي حديث عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

« لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا : خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟
فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله » (١) .

وقد كتب أحد العلماء الباحثين جواباً عن هذا السؤال موضعاً له بمثال ، فقال :
إذا وضعت كتاباً على مكتبك ، ثم خرجت من الحجرة ، وعدت إليها بعد قليل ،
فرأيت الكتاب الذى تركته على المكتب موضوعاً على الدرج ، فإنك تعتقد تماماً
أن أحداً لا بد أن يكون قد وضعه فى الدرج ، لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب
أنه لا ينتقل بنفسه . احفظ هذه النقطة ، وانتقل معى إلى نقطة أخرى .
لو كان معك فى حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي ، ثم خرجت ،
وعدت إلى الحجرة ، فرأيتك جالساً على البساط مثلاً ، فإنك لا تسأل عن سبب
انتقاله ، ولا تعتقد أن أحداً نقله من موضعه ؛ لأنك تعلم من صفات هذا الشخص
أنه ينتقل بنفسه ، ولا يحتاج إلى من ينقله .

احفظ هذه النقطة الثانية ، ثم اسمع ما أقول لك :

لما كانت هذه المخلوقات ، محدثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد
بذاتها ، بل لابدها من موجد ، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى ، ولما كان
كمال الألوهية يقتضى عدم احتياج الإله إلى غيره ، بل إن من صفاته قيامه بنفسه ،
عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج إلى من يوجدده .

وإذا وضعت النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام ، اتضح لك هذا المقام ،
والعقل البشري أقصر من أن يتورط في أكثر من ذلك .

ليس كمثله شيء

والله سبحانه لا يماثله شيء ، ولا يماثل شيئاً ، فكل ما خطر ببالك ، فهو
بخلاف ذلك ، يقول الله سبحانه :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (١) .

ومماثلة غير الله له في بعض الصفات إنما هي من حيث التسمية ، لا من حيث
الحقيقة ، فإذا قيل : إن فلاناً عالم وحىٌّ وموجود وقادر وحكيم ورحيم ، فهو من حيث
الظاهر فقط ، ومع ذلك فإن وجود العلم والحياة ، والقدرة والحكمة والرحمة في الله
كاملة غاية الكمال ، ووجودها في الأفراد ناقصة غاية النقص بالإضافة إلى الله
جل شانه .

« وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٢) .

إن الإنسان خلق ضعيفاً والله قوى عزيز .
والإنسان خلق فقيراً والله غنى حميد .

والإنسان والد ومولود ، والله لم يلد ولم يولد
والإنسان نساى ، والله لا يضل ولا ينسى
والإنسان ناقص ، والله هو الكمال المطلق
والإنسان محكوم عليه بالموت ، والله حيٌّ لا يموت

(١) سورة الشورى آية ١١

(٢) سورة النحل آية ٦٠

يقول سبحانه :

« اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »^(١)

فآية تقرر :

١ - أن الله واحد في ألوهيته لا يعبد معه غيره ؛ لأنه هو الحي التام الحياة

والقيوم الذي قامت به السموات والأرض

٢ - وأنه مقدس عن مماثلة غيره من الأحياء ، فلا يأخذه نوم ولا سنة ولا فتور

يسبق النوم .

٣ - وأن الكون كله : أرضه وسماؤه مملوك له ، وأن كل ما فيه ومن فيه خاضع

له لا يخرج عن تقديره وتديره .

٤ - وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ومشيئته .

٥ - وأن علمه محيط بكل شيء : الماضي والحاضر والمستقبل .

٦ - ولا يدرك أحد شيئاً من علمه إلا بالقدر الذي يشاؤه .

٧ - وأن كرسية وسع السموات والأرض .

٨ - وأنه لا يقبله حفظهما وهو العلي العظيم .

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم صف لنا ربك ؟ فأنزل الله عز وجل :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ^(١) ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » ^(١) .

أى لم يكن له مماثل ولا مكافئ .

وما ورد في آيات الكريمة والسنة المطهرة مما يوهم بظاهره مشابهة الله لخلقه في بعض صفاتهم ، فنؤمن به بدون تشبيه ، ولا تمثيل ، ولا تعطيل ، ويسعنا ما يسع السلف ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

وأحسن ما يقال في ذلك ما قاله الإمام الشافعي :

« آمنت بكلام الله على مراد الله ، وبكلام رسول الله على مراد رسول الله » .

الأحـ

وهو سبحانه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله .

ووحدة الذات : معناها أن ذاته ليست مركبة من أجزاء ، وأنه لا شريك له في ملكه .

« سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » ^(٢)

ووحدة الصفات معناها : أنه ليس لأحد صفة تشبه صفة من صفاته .

ووحدة الأفعال ، معناها : أنه ليس لأحد غيره فعل من الأفعال ، فالله خالق كل

شيء ، ومبدع كل شيء ، فهو سبحانه مستقل بالإيجاد والإبداع .

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

فهو أحد أى أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، وأن جميع الأمور إليه وكل

شيء في قبضته .

(١) سورة الاخلاص : الصمد هو المقصود في الحوائج

(٢) سورة الزمر آية ٤

وهو الصمد أى الغنى الذى يقصده الناس فى حوائجهم .
لم (يلد) لم ينبثق عنه ولد فهو كامل غاية الكمال .
(ولم يولد) لم ينبثق عن غيره ؛ لأنه لا أول لوجوده (ولم يكن له كفواً أحد) ،
لم يكن له أحد يساويه ، ويمثله .

ولو وجد مع الله شريك له فى الِهيَّة لَبطل نظام هذا الكون العجيب :
« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » (١) .

أى لَوْ كَانَ فى السموات والأرض آلهة تدبر أمرها غير الخالق لها لاختل نظامهما لتنازع المشرفين عليهما ؛ لأن كل واحد يريد أن يكون هو المتصرف .
وهذا كقوله :

« مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْنٌ لِّذَهَبِ كُلِّ
إِلَهِ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » (٢) .
وقد تضمنت الآية :

١ - أن الله سبحانه لم يتخذ ولداً لاستنزاف انفصال الولد عن أبيه ، وذلك
يقضى التركيب الحمال على الله ، ولأن الولد يجانس أباه ، ويمثله ، والله ليس كمثل شئ
٢ - والله لا ينبغي أن يكون معه من إله ؛ لأنه لو كان معه إله يشاركه فى

الألوهية ، ويخلق معه لذهب كل واحد بما خلق ، ولعلنا بعضهم على بعض .
أى غالب بعضهم بعضاً ليوسع ملكه ، ولو حصل هذا لفسد نظام العالم .
ولو كان معه آلهة كما يزعم المشركون لطلبوا مغالبة الله ومزاحمة ذى الجلال
« قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ
سَبِيلًا ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عَلُوًّا كَبِيرًا » (٣) .

(٢) سورة المؤمنون آية ٩١

(١) سورة الانبياء آية ٢٢

(٣) سورة الاسراء آية ٤٣

الثالوث عقيدة وثنية

عقيدة النصراني أساسها الثالوث الأقدس : أى المركب من ثلاثة أقانيم^(١) هى :
الآب ، والابن ، وروح القدس ، وهى جواهر ثلاثة ، وكل جوهر منها مستقل عن
الآخر .

والثلاثة مع ذلك إله واحد :

قال أحد النصراني :

فهو الإله ابن الإله وروحه فثلاثة هى واحد لم تقسم
والتثايت ليس خاصاً بالنصراني ، جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر
الفرنسية قولها فى تحديد لفظة ثالوث^(٢) .

« إنه اتحاد ثلاثة أشخاص متميزة مكونة لإله واحد فى عقيدة الديانة النصرانية
وبعض الديانات الأخرى ، فيقال مثلاً : الثالوث النصراني ، والثالوث الهندي » انتهى .

قال المرحوم العلامة الأستاذ فريد وجدى :

« نعم كان الثالوث موجوداً فى ديانة قدماء المصريين بانسبة لآلهتهم الوطنية ،
وقد اندثرت تلك الديانة الآن .

« والثالوث الهندي موجود للآن لدى الملايين من الناس فى الهند والصين ،
وهو أن البراهمة يعتقدون : أن الخالق تجسد أولاً فى « برهما » ثم فى « فيشنو » ثم فى
« سيفا » ، وبصورونهم ملتصقين إشارة إلى هذا التجسد الثلاثى .

ويعتقد البوذيون أن الإله فيشنو الذى هو أحد أركان الثالوث الهندي تجسد
مراراً عديدة لتخليص العالم من الشرور والذنوب ، وكان تجسده فى بوذا للمرة
التاسعة » انتهى .

(١) أى أصول •

هذه العقيدة هي في حقيقة أمرها وثنية ، وأنها دخيلة على دين الله ، فالله منزه
عن أن يشبهه شيء ، أو يشبه هو شيئاً آخر .
« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »
وذاته فوق متناول العقول :

« لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (١)
ولا يجوز أن تتركب ذاته المقدسة من أجزاء ، أو تتحد بالأشياء ، أو تحل في
خلق من المخلوقات :

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا » . (٢)
وعقيدة التوحيد والتنزيه هي عقيدة جميع الأنبياء والرسل ، حتى السيد المسيح
نفسه ، والذين يزعمون غير هذا من النصارى لا برهان لهم من العقل ، ولا سند لهم
من النقل ، وإنما هي ظنون وأوهام طرأت عليهم من الديانات الوثنية القديمة ، قالت
دائرة معارف القرن التاسع عشر عند كلمة ثلاث :

« إن عقيدة الثلاث ، وإن لم تكن موجودة في العهد الجديد الإنجيل ولا في
أعمال الآباء الرسولين ، ولا في تلاميذهم الأقربين ، إلا أن الكنيسة
الكاثوليكية ، والمذهب البروتستانتي ، الواقف مع التقليد يزعمون أن عقيدة
التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان رغماً من أدلة التاريخ الذي يرينا
كيف ظهرت هذه العقيدة ، وكيف نمت ، وكيف عاقت بها الكنيسة بعد ذلك .
نعم إن العادة في التعميد كانت أن يذكر عليه اسم الآب ، والابن ، والروح القدس ،
ولكننا سنريك أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهمه عندنا
الآن نصارى اليوم .

وإن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصه ، وسمعوا قوله ، كانوا أبعاد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأركان الثلاثة المكونة لذات الخالق .

وما كان بطرس أحد حواريه يعتز به إلا رجلاً موحىً إليه من عند الله .
أما نولس فإنه خائف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى ، وقال : إن المسيح أرقى من إنسان ، وهو نموذج إنسان جديد ، أى عقل سام متولد من الله ، وكان موجوداً قبل أن يوجد هذا العالم ، وقد تجسد هنا لتخليص الناس ، ولكنه مع ذلك تابع للإله الأب .

ثم قالت دائرة المعارف بعد ذلك : كان الشأن في تلك العصور أن عقيدة إنسانية عيسى كانت غالبية مدة تكون الكنيسة الأولى من اليهود المنتصرين .
فإن الناصريين^(١) ، والإثيوبيين ، وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية ، اعتقدت بأن عيسى إنسان محض ، مؤيد بالروح القدس ، وما كان أحد إذ ذلك يهتمهم بأنهم مبتعدون أو ملحدون .

قال جوستين مارشير^(٢) :

« إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح ، ويعتبرونه إنساناً محضاً ، وإن كان أرقى من غيره من الناس ، وحدث بعد ذلك أنه كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل » انتهى كلام دائرة المعارف الفرنسية^(٣) .

إن بطلان عقيدة التثليث واضح ووضوح الشمس ، ومع ذلك لأدري كيف يحرصون على ما هو باطل ، ويتعصبون له تعصباً أعمى ، دون سند من التاريخ ، أو حجة من المنطق .

(١) سكان مدينة الناصرة التي تسمى بها الناصري

(٢) مؤرخ لاتيني في القرن الثاني (٣) من كتاب «كنز العلوم واللغة»

« فَأَيُّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » (١) ،
« وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » (٢) .
ومن المحاورات الطريفة :

أن بعض المسلمين قال لأحد القسوس : إن بعض الناس أخبرني أن رئيس
الملائكة قدمات ، فقال له القميس : إن ذلك كذب ، لأن الملائكة خالدون
لا يموتون ، فقال له المسلم : وكيف ؟ وأنت تقول الآن في وعظك : إن الإله
قدمات على خشبة الصليب ، فكيف يموت الإله وتخلد الملائكة ، فبهت القميس
ولم يفتق بكلمة ، أو ينس بيت شفة .

وقال أحد شعراء المسلمين :

عجباً للمسيح بين النصارى	وإلى الله والدا نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد قتله صابوه
فلئن كان ما يقولون حقاً	فسلوهم فأين كان أبوه
فإن كان راضياً بأذاهم	فاشكروهم لأجل ما صنعوه
وإذا كان ساخطاً غير راض	فاعبدوهم لأنهم غلبوه

ومن أحسن ما قيل في ذلك ، قول البوصيري في قصيدته :

جاء المسيح من الإله رسولا	فأبى أقل العالمين عقولا
أسمعت أن الإله حاجة	يتناول المشروب والمأكولا ؟
وينام من تعب ويدعو ربه	ويروم من حر الهجير مقبلا
ويمسه الألم الذي لم يستطع	صرفاً له عنه ولا تحويلا
ياليت شعري حين مات بزعمهم	من كان بالتدبير عنه كقبلا

(١) سورة الحج آية ٤٦

(٢) سورة النور آية ٤٠

زعموا الإله فدَى العبيد بنفسه وأراه كان القاتل المقتولا
أيجوز قول مُنَزَّهٌ لِإِلَهِهِ سبجان قاتلٍ نفسه فأقولاً
أوجل من جعل اليهود بزعمكم شوك القتاد لرأسه إكليلاً
ومضى لحبل صليبه مستسلماً للموت مكتوف اليدين ذليلاً
ضَلَّ النصارى في المسيح وأقسموا لا يهتدون إلى الرشاد سبيلاً
جعلوا الثلاثة واحداً ولو اهدتوا لم يجعلوا العدد الكثير قليلاً
وإذا أراد الله فتنة معشر وأضلهم رأوا القبيح جميلاً

الصفات الثبوتية

ما تقدم من الصفات كان صفات سلبية أما الصفات الثبوتية فهي :

القدرة

وهو سبحانه قادر لا يعجزه شيء ، وصدور هذا الكون ما هو إلا مظهر من
مظاهر قدرته وعظمته ، وقدرته سبحانه سالحة في كل وقت لإيجاد كل ممكن
وإعدامه . .

والتأمل اليسير في السموات والارض ، والليل والنهار ، والحياة والموت ،
وما يجري من شئون في كل لحظة ، يهدى إلى معرفة القدرة الباهرة . يقول سبحانه :
« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » (١) .

ويقول :

« وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٢)

(١) سورة ق آية ٣٨ - والمغوب التعب

(٢) سورة المؤمنون آية ٨٠

ويقول:

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي ^(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ ^(٢) بَيْنَهُ ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَامًا ^(٣) فَتَرَى الْوَدْقَ ^(٤) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا ^(٥) بَرَقَهُ يَذْهَبُ ^(٦) بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ، وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٧) »

الإرادة ^(٨)

والله سبحانه يريد: أى أنه يخصص الشيء الممكن ببعض ما يجوز عليه ، فيجعله طويلاً أو قصيراً ، حسناً أو قبيحاً ، عالماً أو جاهلاً ، فى هذا المكان ، أو فى غيره ، وهو سبحانه له أن يتصرف فى الكون حسب مشيئته وإرادته وحكمته .
« إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(٩) ،

(١) يزجى : يسوق (٢) يؤلف بينه : يجمعه ليتكثف ويتصل ببعضه بعض

(٣) ركاما : مجتمعا يركب بعضه بعضا (٤) الودق : المطر

(٥) سنا : اللعنان

(٦) يذهب : يخطف .

(٧) سورة النور الآيات ٤٣-٤٥

(٨) ليس معنى الإرادة هنا الرغبة أو الميل ، وإنما لها معنى خاص

(٩) سورة النحل آية ٤٠

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ » (١).

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ
وَتَعَزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢).

« اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ
لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ أَوْ الْيُنثَىٰ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ
عَلِيمٌ قَدِيرٌ » (٣).

« يُرِيدُ اللَّهُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٤)

« يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ
وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهْوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا » (٥)

العلم

والله عالم بكل شيء ، وقد أحاط بكل شيء علماً ، سواء منها المعلومات الماضية
أو الحاضرة ، أو المستقبلية .

وغم الله لم يسبق بجهل ، ولا يعتره نسيان ، ولا يتقيد علمه بزمان ولا مكان .
وعلمه بالكليات كعلمه بالجزئيات ، وما يبدو في الكون من نظام وإتقان وإحكام
ما هو إلا برهان ساطع على شمول علمه وكمال حكمته .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦

(١) سورة القصص آية ٦٨

(٤) سورة المائدة آية ٦

(٣) سورة الشورى آية ٤٩، ٥٠

(٥) سورة النساء الآيات ٢٦ ، ٢٧

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (١) .

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٢) .

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٣) .

الحياة

والله سبحانه هو الحى ، والحياة هى الصفة التى تصحح لموصوفها الاتصاف بالقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر ، فلو لم يكن حياً ما ثبتت له هذه الصفات .
وحياة الله حياة كاملة ليس ثم أكل منها ، لا يكتنه كنهها ، ولا تعلم حقيقتها كسائر صفاته .

وحياته لا يلحقها عدم ، ولا يقضى عليها بالانقضاء والفناء .

(١) سورة المجادلة آية ٧

(٢) سورة الانعام آية ٥٩

(٣) سورة يونس آية ٦١

والعالم لا يمكن أن يصدر إلا من حي .
« وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ » (١) .
« هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاعْبُدُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ » (٢) .
« وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » (٣) .

الكلام

والله سبحانه متكلم ، وكلامه ليس بحرف ولا صوت ، وقد أثبت الله هذه
الصفة لنفسه ، وأنه كلم موسى فقال :
« وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » (٤) .

وقال :

« وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ » (٥) .

وأنه يكلم أنبياءه .

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا » (٦) .

وأن كلماته لا حصر لها .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ
رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » (٧) .

-
- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| (٢) سورة غافر آية ٦٥ | (١) سورة الفرقان آية ٥٨ |
| (٤) سورة النساء آية ١٦٤ | (٣) سورة طه آية ١١١ |
| (٦) سورة الشورى آية ٥١ | (٥) سورة الأعراف آية ١٤٣ |
| | (٧) سورة الكهف آية ١٠٩ |

« وَ لَوْ أَنَّ مَاءَ الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ
أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ (١) » .

وهذه الصفة من صفات الله التي أثبتها لنفسه ، فنؤمن بها ، ولا نبحت عن حقيقتها ؛
لأنها كغيرها من الصفات الإلهية التي لا يمكن الوصول إلى العلم بحقائقها .

السمع والبصر

والله سبحانه سميع يسمع كل شيء ، حتى إنه ليسمع ديب النملة السوداء
على الصخرة اللساء في الليلة الظلماء ، دون أن يشغله سماعه جماعة عن سماعه جماعة
آخرين ، ودون أن يشغله لفة ، أو يؤثر عليه ضجيج ، أو يشوش عليه مشوش ،
وهو سبحانه لا يسمع بجارحة ، ولا بألة ولا بأذن ، ولا بصماخ .

وقد شكت إحدى النساء زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذت
تجادله ، فأنزل الله سبحانه .

« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢) » .

وكما أن الله يسمع كل شيء ، فهو يرى كل شيء رؤىة شاملة تستوعب كل
المدركات ، ورؤيته سبحانه ليست بحدقة كما يرى غيره .

وقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون ، وقال لهما :

« اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ

أَوْ يَخْشَى ، قَالَا : رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ، قَالَ :
لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ^(١) .

وقال :

« يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ » .

« وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ^(٢) » .

صفات الذات وصفات الأفعال

صفات الله تعالى منها صفات ذات ، وهي الصفات الثبوتية ، أو صفات المعاني .
وهي صفة الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

وصفات أفعال : مثل صفة الخلق ، والرزق ، فالخالق ، والرازق هو الذي
يفعل الخلق ، ويمنح الرزق ، وقد اتفق العلماء على أن صفات الأفعال غير الذات .
وأنها زائدة عليها .

واختلفوا في صفات الذات : هل هي عين الذات ؟ أى أن الله عالم بالذات .
وحى بالذات ، وهكذا إلى آخر الصفات الثبوتية ، أو أنها صفات زائدة على الذات ؟
أى أنه عالم بعلم ، وحى بحياة ، وقادر بقدرة ، ومريد بإرادة ، وسميع بسمع ،
وبصير ببصر ، ومتكلم بكلام .

(١) سورة طه الآيات ٤٣-٤٦

(٢) سورة غافر الآيات ١٩ ، ٢٠

ونحن نرى رأى من رأى من العلماء ، وأئمة الدين ، أن هذا من الدخيل على الإسلام ، ومن البدع الطارئة على العقيدة ، ومن المنكرات التي يجب على المسلمين أن يتنزهوا عنها ؛ فإن ذات الله أجل من أن تتناول على هذا النحو . وهذا النوع من التفكير مما نهينا عنه ، ولم يكلفنا الله به ؛ لأنه خارج عن نطاق العقل المحدود ، وذات الله فوق الإدراك .

« لَا تَدْرُكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (١) .
« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (٢) .
« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا » (٣) .

وتقدم الحديث : « تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروه قدره » .

إن كل ما كلفنا به — أن نعلم أن الله موجود ، وأن له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، والكمال المطلق ، وما وراء ذلك يجب الإمساك عنه ، ولا يحل البحث فيه ، فالعلم به لا ينفع ، والجهل به لا يضر .

صفات الله أعلام هادية

وإن علينا أن نسير على هدى هذه الصفات ، ونستنير بها ، ونتخذها مثلنا الأعلى ، ونجعلها غايتنا ، حتى نصل إلى أقصى درجات السمو النفسى والارتقاء الروحى . وقد ألفت « حجة الإسلام » الإمام الغزالي رحمه الله كتاب « المقصد الأسنى »

(٢) سورة الشورى آية ١١

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣

(٣) سورة طه آية ١١٠

شرح فيه أسماء الله الحسنى ، وبين حظ المؤمن من كل اسم ، فينبغي الرجوع إليه ،
ونحن نقتبس من كتاب الدين الإسلامى ما يأتى :

فإن الله رب العالمين : وهذا مثل أعلى يجب على المؤمن أن يحتذى به ، فيحسن
تربية نفسه ، وذوى قرباه ، ويعمل على ما فيه الخير والفلاح .

والله تعالى رحمن : ينعم على مخلوقاته ، ويظهر لهم حبه ، دون أن يؤديوا عملاً
يستحقون عليه ذلك ، وهذا مثل أعلى يجب على الإنسان التحلى به ، فيكون رحماً
ببني جنسه ، يفعل الخير ابتغاء وجه ربه ، لا رغبة فى اجتلاب نفع ، أو خشية من
مس ضر .

والله تعالى رحيم : يجازى الإنسان على عمله ، وهذا مثل أعلى أيضاً يوجب على
الإنسان أن يقابل الإحسان بالإحسان .

الله تعالى مالك يوم الدين : يحاسب الناس على أعمالهم ، فيجازى المسئء
لا شهوة فى الانتقام ، بل بروح التسامح ، كما يجب أن يعامل السيد الرحيم مسوده .
والوالد ولده ، وهذا مثل أعلى آخر يوجب على الإنسان أن يكون متسامحاً وعتواً
فى معاملاته مع الناس .

هذه الصفات الأربع : هى أبرز صفات الله العليا ، ومثله العليا ، وما يقال عنها
يقال عن الصفات الأخرى .

فصفات الحب والرحمة التى هى الرؤوف ، الودود ، التواب ، العفو ،
الشكور ، السلام ، المؤمن ، البار ، رفيع الدرجات ، الرزاق ، الوهاب ، الواسع ،
كلها صفات يجب على الإنسان اتخاذها نبراساً للسير على هداها والتحلّى بها كما قدمنا .

و لذلك صفات العلم : التي هي العليم ، الحكيم ، السميع ، البصير ، الشهيد ، الرقيب ، الباطن .

فإنها صفات يجب على الإنسان أن يتبعها ؛ ليلبغ مبلغ العلم والحكمة ، وأن الله تعالى جعل الإنسان خليفته في الأرض حيث قال :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ^(١) » .

وميزه عن سائر المخلوقات ، فعلمه الأسماء كلها ، قال تعالى :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ^(٢) » .

وفيا يختص بالحكمة ، فقد أرسل الله رسولا للناس ، ليعلمهم الحكمة : قال تعالى :

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ^(٣) » .

وقال :

« لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ^(٤) » .

وقوله :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ^(٥) » .

(٢) سورة البقرة آية ٣١

(١) سورة البقرة آية ٣٠

(٤) سورة آل عمران آية ١٦٤

(٣) سورة البقرة آية ١٥١

(٥) سورة الجمعة آية ٢

وقبما يختص بصفات الله الدالة على قدرته وتدييره ، فقد أمر الملائكة بالسجود للإنسان ، وسخر السموات والأرض لخدمته ومنفعته ، ولهذا يجب على الإنسان أن يتخذ من صفات الله تعالى مثلاً أعلى ؛ ليكون أهلاً للقيام بما استخلف عليه ، وسخر له ونحن لا نغنى أن الإنسان باتخاذ صفات الله مثلاً أعلى يمكنه أن يبلغ درجة الكمال وإنما نغنى أن على الإنسان أن يجعل هذه الصفات رائده في حياته ؛ ليحيا بها حياة طيبة مباركة .

حقیقتہ الایمان و ثمرتہ

- مظاہر الایمان
- ثمارہ

الإيمان بالله يمثل أكرم صلة بين الإنسان وخالقه : ذلك أن أشرف ما في الأرض الإنسان ، وأشرف ما في الإنسان قلبه ، وأشرف ما في القلب الإيمان .
ومن ثم كانت الهداية إلى الإيمان أجل نعمة ، وأفضل آلاء الله على الإطلاق .
« يَمُنُونَ عَلَيْكَ إِنَّ أَسْمَاءُ ، قَلَّ لَأَتُمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ إِنَّ هَذَا كُمْ لِلإِيمَانِ (١) » .

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ، وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً (٢) » .

وليس الإيمان هو مجرد النطق باللسان ، واعتقاد بالجنان ، إنما هو عقيدة تملأ القلب ، وتصدر عنها آثارها ، كما تصدر عن الشمس أشعتها ، وكما يصدر عن الورد شذاه .

ومن آثاره أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء من كل شيء ، وأن يظهر ذلك في الأقوال ، والأفعال ، والتصرفات ، فإن كان ثمة شيء أحب إلى المرء من الله ورسوله فالإيمان مدخول ، والعقيدة مهزوزة .

« قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ، وَأَبْنَاؤُكُمْ ، وَإِخْوَانُكُمْ ، وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِينُ

تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ : وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ^(١) .

فالحياة بما فيها من الآباء ، والأبناء ، والأخوة ، والأزواج ، والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، والمساكن .. إن كانت أحب إلى الإنسان من الله ورسوله ، فلينتظر عقاب الله للذين شغلوا قلوبهم عنه بغيرهم .

إن الإيمان لا يكمل إلا بالحب الحقيقي ، حب الله ، وحب رسوله ، وحب الشريعة التي أوحاها الله إليه .

ففي الحديث الصحيح « ثلاث من كنَّ فيه ، وجد حلاوة الإيمان :

١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

٢ - وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله .

٣ - وأن يكره أن يعود في الكفر ، كما يكره أن يقذف في النار . »

وقال صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ، وولده ، ونفسه التي بين

جنبه ، والناس أجمعين . »

وجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا رسول الله : لأنت أحب

إليَّ من كل شيء إلا من نفسي . فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من

نفسك ، فقال عمر : والذي بعثك بالحق لأنت أحب إلي من نفسي .

فقال صلى الله عليه وسلم : « الآن يا عمر ، ، أي الآن تمَّ إيمانك . »

وقال صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به . »

وكما يتمثل الإيمان في الحب ، يتمثل في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، والكفاح لرفع راية الحق ، والنضال لمنع الظلم ، والفساد في الأرض .

وكثيراً ما يقترن الإيمان بالجهاد على أنه روحه ومظهره العملي .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » (١) .

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (٢) .

ولقد برز هذا الكفاح في الصفوة المؤمنة في العهد الأول حتى استحقوا ثناء

الله عليهم .

« مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْصَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » (٣) .

وأثر الإيمان يبدو واضحاً في خشية الله والخوف منه ، فإن من عرف الله وعرف عظمته ، واستشعر جلاله وكبريائه ، وعرف تقصيره في حقه خشيه وخاف منه .

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (٤) .

وهذه سمة أهل الحق القوامين على دين الله .

(١) سورة الحجرات آية ١٥ (٢) سورة التوبة آية ١١١

(٣) سورة الاحزاب آية ٢٣ (٤) سورة فاطر آية ٢٨

« الَّذِينَ يَبْلَغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ .
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا » (١) .

وكما كانت المعرفة أكل كانت الخشية أتم .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إِنِّي لِأَعْلَمُ بِاللَّهِ وَأَخْشَاهُ كَمَا لَهُ » .

وأعظم ما يبدو فيه الإيمان الاستمسك بالوحى ، لأنه المنبع الصافى الذى لم يختلط بشائبة الهوى ، أو آفة الظنون .

والاستمسك بالوحى ، إنما هو اتصال بالله ، وأخذ عنه مباشرة بدون توسط
وسطاء ، وهذا هو اسمى أنواع الاتصال .

والمؤمنون عامة يتجهون هذا الاتجاه ، حتى لا يلتبس الحق الذين يؤمنون به
بالباطل الذى صنعتته عقول الناس وأفهامهم .

« إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » (٢)

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا » (٣)
« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (٤)

(١) سورة الأحزاب آية ٣٩ (٢) سورة النور آية ٥١-٥٢

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٦ (٤) سورة النساء آية ٥٦

والإيمان : نىء علاقات مختلفة

فهو يربط بين المؤمنين وبين الله ، برباط المودة ، والمحبة ، ويقم العلاقة بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، على أساس من الشفقة والرحمة .

ويقم العلاقة بين المؤمنين ، وبين أعداء الله ، الصادين عن الحق على أساس من الغلظة والقسوة .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ . أذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (١) .

وقد تجلت هذه الصفات فى الرسول وصحابه .

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ، (٢) .

والعمل الصالح الذى تزكوه النفس ؛ ويطهر به القلب ، وتعمر به الحياة أثر من آثار الإيمان .

ولهذا يأتى الإيمان فى الآيات القرآنية مقروناً بالعمل الصالح ؛ لأن

الإيمان إذا تجرد عن العمل كان إيماناً عقياً ، وكان كالشجرة التي لا تثمر ثمراً ، ولا تمد ظلاً . فهي بالقطع أولى منها بالبقاء .

والعمل إذا خلا عن الإيمان ، كان رياءً ونفاقاً . والنفاق والرياء هما شر ما يصاب به الإنسان .

« وَالْعَصْرَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ » (١) .

إن الإيمان بهذا المعنى ، هو الإيمان القرآني ، وهو الإيمان الذي أرادته الله لعباده .

وإذا تحقق فإنه يتحول إلى قوة إيجابية في الحياة ، وهو الذي يحول الضعف إلى قوة ، والهزيمة إلى نصر ، واليأس إلى أمل ، والأمل إلى عمل .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » (٢) .

« وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » (٣) .

ثمار الإيمان

وإذا عرف الإنسان ربه عن طريق العقل والقلب — أثمرت له هذه المعرفة ثماراً يانعة ، وتركت في نفسه آثاراً طيبة ، ووجهت سلوكه وجهة الخير والحق ، والسمو والجمال .

(٢) سورة غافر آية ٥١

(١) سورة العصر

(٣) سورة الروم آية ٤٧

وهذه الثمار نجمل بعضها فيما يلي :

(١) تحرر النفس من سيطرة الغير ، وذلك أن الإيمان يقتضى الإقرار بأن الله هو المحيي المميت ، الخافض ، الرافع ، الضار ، النافع .

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (١) .

إن الذى عوق البشرية عن الهوض ، وحال بينها وبين الرقى هو الخضوع للاستبداد ، سواء أكان هذا الاستبداد استبداداً سياسياً للحكام والرؤساء ، أم استبداداً كهنوياً لرجال الدين والكهنوت .

وبتقرير الإسلام لهذه الحقيقة ، قضى على هذا الأسر ، وأطلق حرية الإنسان من سيطرة هؤلاء المستبدين التى لازمته قرونًا طويلاً .

(ب) والإيمان يبعث فى النفس روح الشجاعة والإقدام ، واحتقار الموت والرغبة فى الاستشهاد من أجل الحق .

إذ أن الإيمان يوحى بأن واهب العمر هو الله ، وأنه لا ينقص بالإقدام ، ولا يزيد بالأحجام ، فكم من إنسان يموت وهو على فراشه الوثير ، وكم من إنسان ينجو وهو يخوض غمرات المعارك والحروب ! .

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوجَّلاً » (٢) .

« وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ . يُخْفُونَ فِي

أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ . يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (١) .

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكِكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ » (٢) .

(ح) والإيمان يقتضى الاعتقاد بأن الله هو الرزاق ، وأن الرزق لا يسوقه

حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا . وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٣) .

« وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (٤)

« اللَّهُ يَدْسُطُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ . إِنْ اللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٥) .

وإذا سيطرت هذه العقيدة على النفس تخلص الإنسان من رذيلة البخل والحرص

والشره ، والطمع ، واتصف بفضيلة الجود ، والبذل ، والسخاء ، والأناة والعفة ،

وكان إنساناً مأمول الخير مأمون الشر .

(د) والطمأنينة أثر من آثار الإيمان : أى طمأنينة القلب ، وسكينة النفس .

(١) آل عمران الآية : ١٥ (٢) سورة النساء آية ٧٨ .

(٣) سورة هود آية ٦ . (٤) سورة العنكبوت آية ٦٠ .

(٥) سورة العنكبوت آية ٦٣ .

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ »^(١)
« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدَّهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ »^(٢)
وإذا اطمأن القلب ، وسكنت النفس - شعر الإنسان ببرد الراحة ، وحلاوة
اليقين ، واحتمل الأحوال بشجاعة ، وثبت إزاء الخطوب مهما اشتدت ، ورأى أن
يد الله ممدودة إليه ، وأنه القادر على فتح الأبواب المغلقة ، فلا يتسرب إليه الجزع
ولا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا .

« اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »^(٣)

(هـ) والإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية ، ويربطه بمثل أعلى ، وهو الله
مصدر الخير ، والبر ، والكمال .

وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات ، ويرتفع عن الشهوات ، ويستكبر على
لذائذ الدنيا ، ويرى أن الخير والسعادة في النزاهة والشرف ، وتحقيق القيم الصالحة ..
ومن ثم يتجه المرء اتجاهات تلقائياً لخير نفسه ، ولخير أمته ، ولخير الناس جميعاً .
وهذا هو السرفى اقتران العمل الصالح بجميع شعبه وفروعه بالإيمان إذ أنه
الأصل الذى تصدر عنه ، وتفرع منه .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »^(٤)

(٢) سورة الفتح آية ٤

(١) سورة الرعد آية ٢٨

(٤) سورة يونس : آية ٩

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٧

« وَإِنَّ اللَّهَ لِهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١) » .
« وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ^(٢) » .

وإذا اهتدى القلب ، فأى شيء من الخير يفوته ؟ !

(و) والحياة الطيبة يجعل الله بها للمؤمنين في الدنيا قبل الآخرة .

وتتمثل هذه الحياة في ولاية الله للمؤمن ، وهدايته له ، ونصره على أعدائه ، وحفظه مما يبئس له ، وأخذه بيده كلما عثر ، أو زلت به قدم ، فضلا عما يفوضه عليه من متاع مادي . يكون عوناً له على قطع مرحلة الحياة في يسر .

« مَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٣) » .

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ^(٤) » .

« وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ^(٥) » .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ^(٦) » .

(٢) سورة التغابن آية ١١

(١) سورة الحج آية ٥٤

(٤) سورة النحل آية ٣٠

(٣) سورة النحل آية ٩٧

(٦) سورة غافر آية ٥١

(٥) سورة النور آية ٥٥

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ^(٨) » .

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ^(٢) » .
وقد انتهى العالم إلى هذه الحقائق الإيمانية ؛ ولا يتسع المجال لإثبات شهادات
كبار العلماء ، وتسجيل ما شاهدوه .

ونكتفي هنا بتسجيل ما نشر بمجريدة الجمهورية يوم السبت ٢٩ / ١١ / ١٩٦٢
قالت الصحيفة تحت عنوان « العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض
العقلية » .

عزاء وسلوان لأولئك الذين تشبثوا بدينهم ، ولم يتزعزع إيمانهم في أحلك
لحظات المدنية وأنصهها ، أفصد تلك اللحظات التي يثدق فيها دعاة النظريات العتيدة ،
وفي مقدمتها نظرية النشوء والارتقاء « لداروين » ويثدقون فيها بأن الدين بدعة ،
وبأن الإنسان يقف وحده في هذا الكون ، كما زعم « جوليان هاكسلي » ، جد
الكتاب والفيلسوف البريطاني الكبير « الدوسى هاكسلي » .

إن علماء الأمراض العقلية ، لا يجدون اليوم سلاحاً أمضى ، وأبعد فاعلية لعلاج
سراضهم من الدين والإيمان بالله . والتطلع إلى رحمة السماء . . والتشبث بالرعاية
الإلهية . . والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عندما يتضح عجز كل قوة سواه . . !!
لقد بدأت التجربة في مستشفى بولاية نيويورك ، وهو مستشفى خاص بمرتكبي
الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية .

بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية بخلايا المخ ، والعقاقير المسكنة والمهدئة للأعصاب .

وكانت النتيجة رائعة . . إن أولئك الذين تعذر شفاؤهم . بل فقدوا الأمل فيه انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء . . أولئك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم ، وهم مسلوبو الإرادة . باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم ، ويذرفون الدمع ندماً ، وكلهم أمل في رحمة السماء ومغفرة الله .

واستسلم العلماء ، ورفعوا أيديهم إلى السماء ، يعترفون بضعفهم ، ويعلنون للدنيا أن العلم يدعو إلى الإيمان . وليس أبدأ إلى الإلحاد .

وأنت طبعاً لست في حاجة لأكثر من الإمام بالقراءة ، وحتى إذا كان قد فاتك قطار التعليم فأمامك بيوت الله ، وفيها السلوى .. وفيها العزاء .

القدر

- الله فاعل مختار
- معناه القدر
- وجوب الإيمان بالقدر
- حكمة الإيمان بالقدر
- حرية الإنسان
- الإسلام يقرر حرية الإرادة
- بين مشيئة الرب ومشئئة العبد
- الهداية والاضلال

الله فاعل مختار

الله سبحانه مالك الملك ، يتصرف فيه بمقتضى حكمته ومشيبته ، وكل تصرف منه إنما يجرى وفق مشيبته التي وضعها في الكون وقوانينه المضطربة في الوجود .

« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ »^(١)

وهو سبحانه لا يجب عليه شيء ، ولا يتصرف من أجل أحد .

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »^(٢)

أى أن الله أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول في الناس : إن الله سبحانه مالك الملك الحق ، يعطي الملك لمن يشاء ، وينزعه ممن يشاء بمقتضى سنن الله في العطاء والأخذ ، ويعز من يشاء بالتوفيق لأسباب العز ، ويذل من يشاء بالخذلان . وإنه سبحانه بيده الأمور كلها خيرها وشرها ، فهو يعطي ويمنع : ويعز ويذل وينفع ويضر ، لأنه القادر على كل شيء . ومن مظاهر قدرته ما يشاهد في الكون من إدخال الليل في النهار ، وإدخال النهار في الليل ، وإخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، وأنه يفيض الرزق على من يشاء كما يشاء بغير حساب ، ولا رقابة ؛ لأن الأمر كله له وحده لا شريك له .

(٢) سورة آل عمران : آية ٨

(١) سورة الرعد : آية ٨

وهو الفاعل المختار .

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » (١) .

فهو يخلق ويختار من خلقه ما يشاء ؛ لأنه المتصرف المطلق ، وما كان لأحد الاختيار معه .

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (٢) .

فهو سبحانه يتصرف في ملكه كيفما شاء بمقتضى الحكمة والرحمة .

فإذا مس الإنسان ضر ، فلا يكشفه إلا الله ، وإذا أراد الله خيراً له ، فلا يستطيع أحد رده عنه .

« مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٣)

« اللَّهُ مَالِكِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوهُمَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ . فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٤) .

فملك السموات والأرض له وحده . وما يبديه الإنسان ويظهره ، أو يخفيه ، ويكنه من النوايا والإرادات والعزائم والمقاصد يحاسبه به الله إن خيراً نغير ، وأن شراً فشر ، وهو يغفر لمن يشاء أن يغفر لهم . وقد بين سبحانه من يشاء لهم الغفران في قوله :

(١) سورة القصص : آية ٦٨ (٢) سورة يونس : آية ١٠٧

(٣) سورة فاطر : آية ٢ (٤) سورة البقرة : آية ٢٨٤

« وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » (١) .

فمغفرة الله لمن رجع إلى الله بالتوبة النصوح ؛ وجدد إيمانه بالله ، وعمل العمل الصالح الذي يذهب بالسيئات ، وبلغ منزلة الهداية التي يطمئن فيها القلب بالحق واليقين ، كما أن عذابه سبحانه ينزل بالعصاة المستحقين له بمقتضى عدله وجزاء كل بعمله .

والإيمان بهذا جزء من الإيمان بالله ، ويتفرع عنه الإيمان بالقدر .

معنى القدر

جاء في القرآن الكريم ذكر القدر مراراً :

« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » (٢) .

« وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ » (٣) .

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » (٤) .

والذي يؤخذ من مجموع هذه الآيات أن المقصود بالقدر : هو النظام الحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود ، والقوانين العامة ، والسنن التي ربط الله بها الأسباب بمسبباتها .

وعرفه النووي فقال : إن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم — سبحانه — أنها ستقع في أوقات معلومة عنده — سبحانه وتعالى — وعلى صفات مخصوصة . فهي تقع حسب ما قدرها .

(٢) سورة الرعد : آية ٨

(١) سورة طه آية ٨٢

(٤) سورة القمر : آية ٤٩

(٣) سورة الحجر : آية ٢١

وجوب الإيمان به

وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإيمان بالقدر جزء من العقيدة ، ويكون المعنى أن الله خلق النواميس والقوانين والنظم التي وضعا لهذا الوجود ، وأن الأشياء تجري وتدور حسب هذه النظم والسنن والقوانين .

« وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مِنْ مَنَازِلٍ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَدْبِغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (١) .

ويكون الإيمان بالقدر جزءاً من عقيدة المسلم ، وليس فيه معنى الإيجاب . . قال الخطابي : « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إيجاب الله سبحانه العبد على ما قدره وقضاه . . وليس الأمر كما يتوهمون . وإنما معناه الإخبار عن تقديم علم الله سبحانه بما يكون من اكتسابات العبد ، وصدورها عن تقديمه تعالى ، وخلقها لها . خيرها وشرها . . والقدر اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر » .

وعلم الله سبحانه بما سيقع ، ووقوعه حسب هذا العلم لا تأثير له في إرادة العبد ، فإن العلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . فمثلا علم الإنسان بأن ابنه ذكي مقبل على دروسه ومستوعب لها حفظا وفهما ليس له تأثير في نجاحه .

حكمة الإيمان بالقدر

وحكمة ذلك : أن تنطلق قوى الإنسان وطاقاته لتعرف هذه السنن ، ولتدرك

(١) سورة يس : آية ٣٧

هذه القوانين ، وتعمل بمقتضاها في البناء والتعمير ، وفي استخراج كنوز الأرض والانتفاع بما أودع في الكون من خيرات

وبذلك يكون الإيمان بالقدر قوة باعثة على النشاط والعمل والإيجابية في الحياة كما أن الإيمان بالقدر يربط الإنسان برب هذا الوجود ، فيرفع من نفسه إلى معالي الأمور : من الإباء والشجاعة والقوة من أجل إحقاق الحق ، والقيام بالواجب .

والإيمان بالقدر يرى الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا، فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع ، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح ولا يبطر ، وإذا برىء الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل ، ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح — كان إنسانا سويا متزنا ، بالغاً منتهى السمو والرفعة ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا . إِنْ ذُكِرَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » (١) .

هذا ما ينبغي أن نفهمه من القدر ، وهو مقتضى فهم الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وفهم أصحابه رضی الله عنهم أجمعين .

وقد دخل رسول الله يوماً على الإمام عليٍّ كرم الله وجهه بعد صلاة العشاء ، فوجده قد بكر بالنوم ، فقال له :

« هَلَا قَمَتَ مِنَ اللَّيْلِ ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْفَسْنَا بِيَدِ اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ بَسْطَهَا ، وَإِنْ

شاء قبضها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج وهو يضرب على نغذه ويقول : وكان الإنسانُ أكثرَ شئٍ جدلاً .

وسرق أحد اللصوص ، فلما حضر بين يدي عمر رضى الله عنه ، سأله لم سرقت ؟ فقال قدر الله ذلك ، فقال عمر رضى الله عنه اضربوه ثلاثين سوطا ، ثم اقطعوا يده ، فقيل له : ولم ؟ فقال : يقطع لسرقته ، ويضرب لكذبه على الله .

إن القدر لا يتخذ سبيلا إلى التواكل ، ولا ذريعة إلى المعاصي ، ولا طريقاً إلى القول بالجبر ، وإنما يجب أن يتخذ سبيلا إلى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال . إن القدر يُدفعُ بالقدر ، فيدفع قدر الجوع بقدر الأكل ، وقدر الظمأ بقدر الرى ، وقدر المرض بقدر العلاج والصحة ، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل .

ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما حينما فرَّ من الطاعون : أتقر من قدر الله ، قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله . أى يفر من قدر المرض والوباء إلى قدر الصحة والعافية ، ثم ضرب له مثلا بالأرض الجدباء ، والأرض الخصبية ، وأنه إذا انتقل من الأرض الجدباء إلى الأرض الخصبية لترعى فيها إبله ، فإنه ينتقل من قدر إلى قدر .

لقد كان يمكن للرسول وصحابه أن يستكينوا كما يستكين الضعفاء الواهين ، معللين أنفسهم بالفهم المغلوط الذى يتعمل به الفاشلون ، ولكنه جاء يكشف عن وجه الصواب فلم يهن ، ولم يضعف ، واستعان بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى ، ملتزما سنة الله فى نصره لعباده .

فقاوم الفقر بالعمل ، وقاوم الجهل بالعلم ، وقاوم المرض بالعلاج ، وقاوم الكفر والمعاصى بالجهد ، وكان يستعيد بالله من الهم والحزن ، والعجز والكسل

وما عزواته المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجرى حسب مشيئة الله وقدره .

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يفهم القدر فهماً خاطئاً ، ودعا إلى مجاهدة من يرى هذا الفهم الخطأ

فقد روى عن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يكون في آخر الزمان قوم يعملون المعاصي ، ثم يقولون : الله قدرها علينا . الرأء عليهم يومئذ كالشاهر سيفه في سبيل الله »

هذا هو القدر الذى ينبغي أن نعرفه عن القدر وما وراء هذه المعرفة عنه فلا يحل لنا البحث فيه ولا التنازع فى شأنه ؛ فإن هذا من أسرار الله التي لا تحيط بها العقول ، ولا تدركها الأفكار .

فمن أبى هريرة رضى الله عنه قال : وخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، وقال : أبهذا أرسلت إليكم ؟ إنما أهلك من قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه ، وفى هذا يقول رضى الله عنه لمن سأله فى مثل هذا : طريق مظلم لا تسلكه ، كرر عليه السؤال فقال : بجر عميق لا تمججه ، كرر عليه السؤال فقال : سر الله قد خفي عليك فلا تفشه .. ، فمثل هذا النهى إنما ينصب على السؤال عن نظام الله فى الحياة والموت . وبسط الرزق وضيقة وهكذا ، لا على الكلام فى القدر نفسه

حرية الإنسان

منذ أقدم العصور أخذ الإنسان يفكر فى نفسه ، وفى الكون المحيط به ، وكانت حرية الإنسان إحدى القضايا التي تناولها عقله ، وشغلت حيزاً كبيراً من تفكيره ، ولا تزال هذه القضية إلى يومنا هذا مثار جدل ومناقشة بين المفكرين

والفلاسفة ، ولا يزال اهتمامهم بها اهتماماً بالغاً ، إذ أنها قضية تتعلق بحياة الإنسان ، وتتصل بمصيره ، فهو يبحث فيها ، ويكبد ، ويجد في البحث علّة يهتدى إلى الحل الصحيح ؛ كي يرسم لنفسه السلوك على ضوء الحل الذي يهتدى إليه .

وبدهى أن الإنسان حينما حاول الكشف عن وجه الصواب في هذه القضية وأراد البحث فيها لم يجعل ميدان بحثه الأعمال الخارجة عن إرادته واختياره ككونه أبيض ، أو أسود ، وككونه وُلِدَ من هذا الوالد ، أو ذاك . وكنبضات قلبه ، وتنفسه وجريان الدم في عروقه ، فإن هذه الأشياء خارجة عن نطاق البحث ، لأن الإنسان لا اختيار له فيها ، وهي غير خاضعة لإرادته .

ولإنما أتجه الإنسان وهو بصدد البحث في هذه القضية إلى الأعمال الإرادية التي تدخل في نطاق الإرادة والاختيار ، ومدى حريته في ممارسة هذه الأعمال مثل خروجه من البيت ، وأخذه طعاماً معيناً ، ولبسه نوعاً من الملابس ، وتفضيله لوناً من العلم ، أو الكتابة ، وممارسته حرفة من الحرف ، وزيارته لغيره ، وهكذا في كل عمل من الأعمال الاختيارية .

وقد اختلفت الأنظار ، وتضاربت الأفكار تضارباً كادت تضيع معه معالم الحق . فمن قائل : بأن الإنسان مسير^(١) غير مخير ، ومجبر على ممارسة نشاطه الاختياري ، وأنه كالريشة في مهب الريح تتقاذفها ذات اليمين ، وذات الشمال . ومن قائل : بأن الإنسان مخير^(٢) غير مسير ، وأنه يمارس أعماله الاختيارية بمحض إرادته ومشيبته .

ومن قائل : بأن الإنسان ليس له من أعماله إلا الكسب^(٣) — أى أن الله يخلق

(١) هذا مذهب الجبرية

(٢) مذهب المعتزلة والإمامية

(٣) رأى الأشاعرة .

الشيء عند مباشرته، أى أن الله يخلق الشبع عند الأكل ، ويخلق المعرفة عند الدراسة وهكذا وليس للعبد إلا الكسب ، وبه يصح التكليف والثواب والعقاب والملح والذم .

والذى نراه فى هذه القضية، ومختاره هو ما قرره الإسلام فيما يلى:

تقرير الإسلام حرية الإرادة

قرر الإسلام أن الإنسان خلق مزوداً بقوى وملكات واستعدادات، وهذه القوى يمكن أن توجه إلى الخير ، كما يمكن أن توجه إلى الشر ، فهى ليست خيراً محضاً ، ولا شراً محضاً ، وإن كانت إرادة الخير فى بعض الناس أقوى ، وإرادة الشر فى البعض الآخر أقوى ، وبينهما تفاوت لا يعلمه إلا الله ، وفى الحديث الصحيح .

« كل مولود يولد على الفطرة » .

وفى الحديث أيضاً : « الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية

خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا . . . » .

ويؤيد هذا قول الله سبحانه وتعالى :

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » (١) .

أى أن الله خلق النفس مسوأةً ومعتدلةً قابلةً للتقوى والفجور ، ومستعدة

للخير والشر .

والله سبحانه زود الإنسان بالمقل الذى يميز به بين الحق والباطل فى

العقائد ، وبين الخير والشر فى الأفعال ، وبين الصدق والكذب فى الأقوال .

وأعطاه القدرة التى يستطيع بها أن يحق الحق ، ويبطل الباطل ، وأن يأتى

الخير ويدع الشر ، وأن يقول الصدق ، ويجانب الكذب ، ورسم له منهج الحق

والخير والصدق بما أنزل من كتب ، وبما أرسل من رسل ، ومادام العقل المميز موجوداً ، والقدرة على الفعل صالحة ، والمنهج المرسوم واضحاً ، فقد ثبت للإنسان حرية الإرادة ، واختيار الفعل .

وعلى الإنسان أن يوجه قواه إلى ما يختاره لنفسه من حق ، أو باطل ، ومن خير ، أو شر ، ومن صدق ، أو كذب .

وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه :

« إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » (١) .

أى هديناه وأرشدناه إلى طريق الحق والباطل ، والخير والشر ، والصدق . والكذب . فهو إما أن يسلك السبيل الأهدى ، فيكون شاكرًا ، أو الطريق المعوج فيكون كفورًا .

وفي هذا المعنى أيضاً يقول القرآن الكريم :

« وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » (٢) أى الطريقين .

وكل إنسان مسئول عن تهذيب نفسه ، وإصلاحها حتى تصل إلى كمالها المقدر لها ، فإن إصلاحها وتركيتها وتنميتها بالعلم النافع والعمل الصالح هو سبيل فلاحها وفوزها برضا الله ، والقرب من مشاهدة جلاله وجماله ، كما أن إهمالها هو السبيل إلى خيبتها وخسرانها .

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (٣) .

« بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ » (٤) .

(١) سورة الإنسان آية ٣ (٢) سورة البلد آية ١٠

(٣) سورة الشمس آية ٩-١٠ (٤) سورة القيامة آية ١٤

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » (١) .

« كُلُّ أَمْرٍ إِذٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » (٢) .

والآيات التي تقرر حرية الإنسان كثيرة جداً ، منها قول الله سبحانه وتعالى :
« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ » (٣) .

فأسند العمل الصالح والعمل السيء إلى الإنسان ، ولو لم يكن الإنسان حراً
ما أسند إليه الفعل .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الله سبحانه :

« وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » (٤)

أى أن الشرور التي تعرض للإنسان إنما هي أثر من آثار عمله وتناج
اختياره وتصرفه .

وإن القرآن ليتحدث عن المفسد والجرائم التي تحيط بالناس ، فيبين أنها ليست
من صنع الله ، وإنما هي من عمل البشر .

« ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » (٥) .

وهذا الذي يقرره القرآن هو ما يشعر به الإنسان من نفسه ، فهو يشعر
بأنه يمارس أعماله الإرادية بمحض إرادته واختياره ، فهو يفعل منها ما يشاء ،

(١) سورة المدثر آية ١٨ (٢) سورة الطور آية ٢١

(٣) سورة فصلت آية ٤٦ (٤) سورة الشورى آية ٣٠

(٥) سورة الروم آية ٤١

ويَدَعُ منها ما يشاء ، وهو إذا فعل منها ما هو نافع استحق المدح ، وإذا فعل ما هو ضار استوجب الذم ، فلم يكن مختاراً لما توجه إليه المدح على فعل ما هو نافع ، ولما توجه له الذم على فعل ما هو ضار .

بل لو لم يكن الإنسان مختاراً لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسيء ؛ إذ أن كلا منهما مُجْبَرٌ على ما يفعله ، ولبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ إذ لا فائدة لهما حيث إن الإنسان مسلوب الإرادة ، ولما كان ثمة معنى لتكليف الله للعباد ؛ لأن تكليفه إياهم مع سلب اختيارهم هو منتهى الظلم الذي يتنزه الله عنه ، ويكون الأمر كما قال القائل :

ألقاه في أليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتسلَّ بالماء

بل لو كان الإنسان مسيراً لضاعَت فائدة القوانين ، ولبطل الجزاء من

الثواب والعقاب .

وقد أراد المشركون أن يحتجوا بمشيئة الله على شركهم . وأنه لو لم يشأ أن

يكونوا مشركين لما كانوا كذلك ، فأبطل الله حججهم ودَحَضَهَا بقوله :

« سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا

مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ هَلْ

عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » (١) .

فالقُرآن يرد على المشركين من وجهين :

الأول : أن الله أذاق الكافرين الأول بأسه ، وأنزل بهم عقابه ، فلو لم يكونوا مختارين للجرائم والمآثم ، والكفر والشرك لما عذبهم الله ، لأن الله عادل لا يظلم متقال ذرة .

والوجه الثانى : أنهم زعموا ذلك عن جهل بالله ، وجهل بدينه ، وأنهم ليس عندهم من علم يمكن أن يستند إليه ، ويرجع إليه ، وإنما كفرهم هذا تمرد على دينه وافتيات على الحق الذى أنزله على أسنة الرسل .

وإذا كان الله قد عذب الأمم السابقة على كفرها ، وإذا كان المشركون ليس لهم من حجة يحتجون بها ، فقد تقرر أن دعوى المشركين دعوى ظنية لا تقوم عليها حجة ، ولا ينهض بها دليل .

وبذلك قامت حجة الله البالغة على هؤلاء ، ولو شاء الله لأجبرهم على الهداية ، وإذا فلن يكونوا حينئذ من البشر ، لأن البشر فطر على الحرية والاختيار .

مشيئة الرب ومشيئة العبد

وقد يقال : إذا كان الله منح العبد الحرية والاختيار فما معنى قوله :

« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (١) .

فنقول : معناها أن الإنسان لا يشاء شيئاً إلا إذا كان فى حدود مشيئة الله وإرادته ، فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ، والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين : طريق الهداية ، أو طريق الضلالة .

فإذا اختار الطريق الأول ، ففي نطاق المشيئة الإلهية ، وإذا اختار الطريق الثاني
ففي نطاقها أيضاً .

وكل الآيات التي جاءت على هذا النحو فمعناها لا يتعدى ما ذكرناه .

الهداية والإضلال :

وقد يقال أيضاً : لقد جاء في القرآن الكريم :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (١) .

أى أن الله يضل من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته ، وإذا كان الله
يضل ويهدي فليس للعبد حرية الاختيار ، والواقع أن الهداية والإضلال نتائج
لمقدمات ، ومسببات لأسباب .

فكما أن الطعام يفسد ، والماء يروى ، والسكين تقطع ، والنار تحرق .

فكذلك هناك أسباب توصل إلى الهداية ، وأسباب توصل إلى الضلال .

فالهداية إنما هي ثمار عمل صالح .

والضلال إنما هو نتائج عمل قبيح

فإسناد الهداية والإضلال إلى الله من حيث إنه وضع نظام الأسباب والمسببات

لأنه أجبر الإنسان على الضلال أو الهداية .

وحينما نرجع إلى الآيات القرآنية نجد هذا المعنى بيناً وواضحاً ، لا لبس فيه ولا غموض

فالله يقول :

(١) سورة النحل : الآية ٩٣

« وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ » (١) .

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (٢) .

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّاهُمُ تَقْوَاهُمْ » (٣) .

فهداية الله للناس بمعنى لطفه بهم ، وتوفيقهم للعمل الصالح ، إنما هي ثمرة جهاد للنفس وإنابة إلى الله ، واستمساك بإرشاده ووجيه .

ويقول القرآن الكريم في الإضلال :

« يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .
الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » (٤)

« يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .
وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » . (٥)

« كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا » (٦) .
« فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (٧) .
« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٨) .

-
- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الرعد آية ٢٧ | (٢) سورة العنكبوت آية ٦٩ |
| (٣) سورة محمد آية ١٧ | (٤) سورة البقرة آية ٢٦ - ٢٧ |
| (٥) سورة إبراهيم آية ٢٧ | (٦) سورة ظفر آية ٣٥ |
| (٧) سورة الصف آية ٥ | (٨) سورة المطففين آية ١٤ |

بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا، (٢).

فترى من هذه الآيات أن سبب الإضلال هو الزيف، والخروج عن تعاليم الله . والكبر، والجبروت، والتعالى على الناس بغير حق ، ونقض عهد الله ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ووصل ما أمر الله به أن يقطع ، والفساد في الأرض ، والكفر واقتراف الآثام :

فهذه هي الأسباب التي أضلت الناس ، وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهدى ، واستحبوا الظلام على النور ، فكان أن كأفهم الله فأصمهم ، وأعمى أبصارهم بمقتضى نظامه في ارتباط الأسباب بسببها . وهذا ونحوه كثير في كتاب الله ، ومنه :

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (٢) .

فهؤلاء أهلوا منافذ العلم والعرفان، وعطلوها عما خلقت له ، فلم يصل إليها نور الحق .

فقلوبهم غلف لا تعقل عن الله وحيه ، وعيونهم عمى لا ترى الله في ملكوته ، وآذانهم صم لا تسمع آيات الله ، فهم مثل الأنعام التي لا تنفع بجواسمها الظاهرة والباطنة ، بل أضل من الأنعام إذ الأنعام لم تزود بما زود به الإنسان من قوى نفسية وعقلية وروحية .

الملائكة

- من هم الملائكة
- من خلقوا؟
- فضل البشر على الملائكة
- طبيعتهم
- تفاوتهم
- عملهم في عالم الأرواح
- عملهم في عالم الطبيعة
- الإيمان بهم

الملائكة الأعلى ، أو الملائكة عالم لطيف غيبي غير محسوس ، ليس لهم وجود جسماني يدرك بالحواس ، وهم من عوالم ما وراء الطبيعة ، أو غير المنظورة التي لا يعلم حقيقتها إلا الله .

وهم مطهرون من الشهوات الحيوانية ، ومبرهون من الميول النفسية ، ومنزهون عن الآثام والخطايا .

والملائكة : ليسوا كالبشرياً كلون ، ويشربون ، وينامون ، ويتصفون بالذكورة ، أو الأنوثة ، وإنما هم عالم آخر ، قائم بنفسه ، ومستقل بذاته ، لا يتصفون بشيء مما يتصف به البشر من الحالات المادية ، ولهم قدرة على أن يتمثلوا بصور بشرية ، وغيرها من الصور الحسية ، فقد جاء جبريل إلى السيدة مريم متمثلاً في صورة بشرية :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا » (١) .

ودخلت جماعة منهم على سيدنا إبراهيم في صورة آدميين يحملون إليه البشري وظنهم ضيوفاً فقدم إليهم الطعام :

« وَاقْتَدَتْ جَاءَتْ رُسُلُنَا (٢) إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبَسَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٣) . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ (٤) »

(١) سورة مريم آية ١٦ - ١٧ (٢) أى الملائكة

(٣) مشوى على الحجارة المحماة بالنار (٤) وجد منهم غير ما يعرف

وَأَوْجَسَ^(۱) مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُوطٍ ، وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ^(۲) فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ^(۳) .

مِم خُلِقُوا؟

والملائكة خلقهم الله من نور ، كما خلق آدم من طين ، وكما خلق الجن من نار .
روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ » .

ومسكنهم السماء ، وينزلون منها بأمر الله .

روى أحمد والبخارى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال : فنزلت :
« وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ
وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا »^(۴) .

وخلقهم متقدم على خلق الإنسان ، وقد أخبرهم الله بأنه سيخلقهم ويجعله خليفة
فى الأرض .

(۱) شعر بالخوف منهم (۲) سرورا وفرحا بالبشرى

(۳) سورة هود آية ۶۹ — ۷۳ (۴) سورة مريم آية ۶۴

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ . قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (١) .

البشر أفضل منهم

والظاهر أن البشر أفضل من الملائكة ، كما هو واضح في عجزهم عن الإجابة على الأسماء التي عرضها الله عليهم ، بينما أجاب آدم إجابة صحيحة ، فشرّف بالعلم الذي خصه الله به وامتاز بملئهم في معرفة الأشياء وإدراكها .

وكذلك في أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ما يفيد تفضيله عليهم .

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » (٢) .

ومن جانب آخر ، نرى أن طاعة الملائكة جباية ، وتركهم للمعصية لا يكلفهم أدنى مجاهدة ؛ لأنه لا شهوة لهم .

فأى فضل لهم في الطاعة ، وترك العصيان مع أن ذلك يقع منهم وقوعاً اضطرارياً كما ينبض القلب ، ويجرى الدم ، وتنفس الرئتان بينما الإنسان يجاهد النفس ،

(٢) سورة البقرة آية ٣١ - ٣٤

(١) سورة البقرة آية ٣٠

ويصارع الهوى ، ويحارب الشيطان ، ويتكلف الطاعة ، ويسعى جاهداً في تكميل نفسه ، وترقية روحه رغباً ورهباً .

طبيعتهم

وطبيعة الملائكة الطاعة التامة لله ، والخضوع لجبروته ، والقيام بأوامره ، وهم يتصرفون في شئون العالم بإرادة الله ومشئته ، وهو سبحانه يدرّبهم ملكه . وهم لا يقدرّون على شيء من تلقاء أنفسهم :

« يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (١) .

« بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ ، إِلَّا لِمَنْ أُرِضِيَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » (٢) .

« لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (٣) .

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً^(٤) لقوله كأنه صلصلة^(٥) على صفوان فإذا فزع^(٦) عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قال الحق ، وهو العلى الكبير » .

(١) سورة النحل آية ٥٠ (٢) سورة الأنبياء آية ٢٧

(٣) سورة التحريم آية ٦ (٤) خضعاناً مصدر أى خضعت خضوعاً

(٥) الصلصلة : الصوت المتدارك الذى يسمع ولا يثبت أو ما يقرع السمع حتى

يفهم بعد ، والصفوان : الحجر الأملس

(٦) فزع : انكشف الفزع

تفاوتهم

وهم يتفاوتون في الخلق ، كما يتفاوتون في الأقدار تفاوتاً لا يملئه إلا الله :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١) .

أى أن الله جعل الملائكة أصحاب أجنحة (٢) فمنهم من له جناحان ، ومنهم من
له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من يزيد على ذلك ، وهذا مظهر التفاوت
في الأقدار عند الله والقدرة على الانتقال .

روى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل
عليه السلام له ستائة جناح .

وكثرة الأجنحة دليل القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالته .
« وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ » (٣) ، وَإِنَّا لَنَحْنُ
الْمُسَبِّحُونَ (٤) .

قال ابن كثير : وما من ملك إلا له موضع مخصوص في السموات ، ومقامات
العبادات لا يتجاوزها ، ولا يتعداها .

(١) سورة فاطر آية ١

(٢) هذا من الغيب الذى تؤمن به ولا نبحث عنه لأننا لم نكلف العلم به

ولم يجزنا المعصوم عنه . (٣) أى نقف صفوفنا فى الطاعة

(٤) أى نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه ونزهره عن النقائص فنحن

عبيده ، فقراء إليه ، خاضعون إليه . سورة الصافات آية ١٦٥

وقال ابن عساكر في ترجمته لمحمد بن خالد بسنده إلى عبد الرحمن ابن العلاء
ابن سعد عن أبيه ، وكان ممن بايع يوم الفتح إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
يوما جلسائه :

أطت السماء وحق لها أن تظط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راع أو
ساجد ، ثم قرأ :

« وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ
الْمَسْبُوحُونَ » (۱) .

عملهم

وللملائكة عمل في عالم الأرواح ، وعمل في عالم الطبيعة ، ولهم صلة خاصة
بالإنسان .

عملهم الروحي

فعملهم في عالم الأرواح يتلخص فيما يلي : —

(۱) التسبيح والخضوع للنام لله :

« إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ
يَسْجُدُونَ » (۲) .

« وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ » (۳) .

(۱) سورة الصافات آية ۱۶۵ ، ۱۶۶

(۲) سورة الأعراف آية ۲۰۶ (۳) سورة الزمر آية ۷۵

(ب) حمل العرش :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ » (۱)

« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ » (۲)

(ج) التسليم على أهل الجنة :

« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ » (۳)

(د) تعذيب أهل النار :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (۴)

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ، لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ ، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ، وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً » (۵)

النزول بالوحي

وملك الوحي ، هو جبريل عليه السلام ، قال تعالى :

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » (۶)

(۲) سورة الحاقة آية ۱۷

(۱) سورة غافر آية ۷

(۴) سورة التحريم آية ۶

(۳) سورة الرعد آية ۲۳ ، ۲۴

(۶) سورة البقرة آية ۹۷

(۵) سورة المدثر آية ۲۷ - ۳۱

ويسمى - الروح الأمين - قال الله تعالى :

« وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ، ^(١)»

ويسمى روح القدس ، قال الله تعالى :

« قُلْ نَزَلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ^(٢) ،»

ويسمى أيضاً بالناموس ، كما قال ورقة بن نوفل لرسول الله في أول عهده بالوحي
لقد جاءك الناموس الذي نزل الله على موسى .

ويأتى جبريل أحياناً في صورة بشر ، وأحياناً في مثل صلصلة ^(٣) الجرس .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه
سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال :
« أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم ^(٤) عنى وقد
وعيت عنه ^(٥) ما قال :

« وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول » :

(١) سورة الشعراء آية ١٩٣ - ١٩٤ . (٢) سورة النحل آية ١٠٢ .

(٣) أى أن صوته يشبه الصلصلة وهو الرنين المتتابع .

(٤) يفصم : يقلع .

(٥) وعيت : حفظت : إنما كانت الحالة الأولى أشد لأنها : انسلاخ من

البشرية واتصال بالروحانية ؛ وكانت الثانية أخف ، لأنها انتقال ملك الوحي من
الروحانية إلى البشرية .

قالت عائشة رضي الله عنها : « ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فينصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .
وفي الحديث الذي أخرجه ابن أبي دنيا ، والحاكم عن ابن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ؛ فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .

عملهم في الطبيعة ومع الإنسان

وللملائكة عمل في تدبير أمور الكون من إرسال الرياح والهواء ، ومن سوق السحب وإنزال المطر ، ومن إنبات النبات ، ونحو ذلك من الأعمال الخافية على الأنظار التي لا تقع تحت الحواس .
وهم يلازمون الإنسان في حياته كلها ، وبعد مماته ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرمهم » .

تنشيط القوى الروحية الكائنة في الإنسان بإلهام الحق والخير .

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« إن للشيطان لمة^(١) ، وابن آدم ، والملك لمة ، فأما لمة الشيطان ، فإيعاد بالشرك وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك ، فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ :

(١) اللمة كهمة : الخطرة بالقلب . لمة الشيطان وسوسته بالسوء ، ولمة الملك

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (١) .

دعاء الملائكة للمؤمنين

والله سبحانه لسعة مغفرته ، ولحبه لعباده ، يلهم ملائكته أن يضرعوا إليه بالدعاء ، ويسألوه برحمته التي وسعت كل شيء ، وعلمه الذي وسع كل شيء ، أن يغفر للتائبين ، ويدخلهم في عباده الصالحين :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (٢)

وروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يدعوان ، يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكا تلقاً . ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً .

تأمينهم مع المصلين

والملائكة تؤمن مع المصلين ، فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(١) سورة البقرة آية ٢٦٨ (٢) سورة غافر آية ٧ -- ٩ .

« إذا قال الإمام « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فقولوا : آمين ^(١) ، فإن الملائكة يقولون : آمين ، وإن الإمام يقول : آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه ^(٢) . »

حضورهم صلاة الفجر والعصر من كل يوم

روى البخارى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ، يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم .
« وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ^(٣) إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ^(٤) . »

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون . »

نزولهم عند قراءة القرآن

وهم ينزلون عند قراءة القرآن ، ويستمعون إليه :
فعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينا هو فى ليلة يقرأ

(١) أى قولوا آمين مع الإمام مع الموافقة له
(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى (٣) أى صلاة الفجر
(٤) سورة الإسراء آية ٧٨

في مربدته^(١) إذ جالت فرسه ، فقراً ، ثم جالت^(٢) أخرى ، فقراً ، ثم جالت أيضاً . قال أسيد ، فخشيت أن تطأ يحيى فقممت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسي ، فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها . فقال : فعدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن حضير . قال فقراءتُ ، ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن حضير قال : فقراءتُ ، ثم جالت أيضاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن حضير . قال : فانصرفت وكان يحيى قريباً منها خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ماتستتر منهم^(٣) .

حضورهم مجالس الذكر

وهم يلتمسون حلقات الذكر لإمدادهم بالقوى الروحية .
عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . قال : فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم ما يقول عبادى ؟ قال يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ويمجدونك ، ويمجدونك ؟ قال فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون لا والله يارب

(٢) جالت : وثبت

(١) المابد : الجرن

(٣) رواه البخارى ومسلم ، واللفظ له .

ما رأوك قال : فيقول : كيف لورأوني ؟ قال يقولون : لورأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً ، قال فيقول : مم يسألوني ؟ قال يقولون : يسألونك الجنة . قال فيقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله يارب ما رأوها ؟ قال فيقول : فكيف لو رأوها ؟ قال يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، قال : فم يتعوذون ؟ قال : يقولون يتعوذون من النار . قال فيقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون : لا والله ما رأوها . قال فيقول : فكيف لو رأوها ؟ قال يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة . قال فيقول : أشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم . رواه البخاري واللفظ له ومسلم . ولفظه قال :

« إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلاء يتفنون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم ، وصف بعضهم بعضاً بأجنتهم حتى يملثوا ما بينهم وبين السماء ، قال : فيسألهم الله عز وجل — وهو أعلم بهم — من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبادك في الأرض يسبحونك ، ويكبرونك ، ويهللونك ، ويحمدونك ويسألونك . قال : فما يسألوني ؟ قالوا يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتي ؟ قالوا لا يارب — قال : وكيف لو رأوا جنتي ؟ قالوا : ويستجبرونك قال : ومم يستجبروني ؟ قالوا : من نارك يارب . قال : هل رأوا ناري ؟ قالوا : لا يارب . قال : فكيف لو رأوا ناري ؟ قالوا : ويستغفرونك . قال : فيقول : قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا . قال يقولون : رب فيهم فلان عبد خطاه إنما مر مجلس معهم ؟ قال فيقول : وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

صلاتهم على المؤمنين وخاصة أهل العلم منهم
« هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » (١) .

وعن أبي أمامة أن رسول الله قال : « إن الله وملائكته وأهل السموات
والأرض ليصلون على معلم الناس الخير » (٢)

تبريكم أهل العلم وتواضعهم لهم

عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » (٣)

حملهم البشريات

روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
زار رجل أخا له في قرية أخرى ، فأرصد الله له على مدرجته (٤) ملكا ، فلما أتى
عليه ، قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في هذه القرية قال : هل لك عليه من
نعمة تربها (٥) ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله عز وجل ، قال : فإني رسول الله
إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه

إعلانهم ممن يحبه الله وممن يبيغضه

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

(١) سورة الأحزاب آية ٤٣ (٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن

(٣) رواه أبو داود والترمذى (٤) مدرجته : طريقه

(٥) تصلحها

« إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال :

« إني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض .

« وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول :

« إني أبغض فلانا ، فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادى في أهل السماء إن الله أبغض فلانا فأبغضوه ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض^(١) .

كتابتهم الأعمال :

وهم يكتبون أعمال الإنسان ، ويحسون عليه حسناته وسيئاته .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٍ^(٢) ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ^(٣) .

« وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ^(٤) .

(١) رواه مسلم

(٢) قال الحسن في قول الله « عن اليمين وعن الشمال قعيد » : يا ابن آدم :

بسطت لك صحيفة ، وكل بك ملكان كريمان : أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك : فأما الذي عن يمينك ، فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فأعمل ما شئت ، أقلل ، أو أكثر . حتى إذا مات طويت صحيفةك ، وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » .. الآية ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب

نفسك . (٣) سورة ق آية ١٦ (٤) سورة الانقطار آية ١٠-١٢

« أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ، أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَاهُمْ ، بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ » (١)

ويسجلون هذه الأعمال عندهم في سجل لكل فرد ، ثم تعرض يوم الحساب :
« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » (٢)
وفي أثناء العرض يشهدون على ما عمل الإنسان من خير أو شر :

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ
وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَبَصَرُكُمُ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ » (٣) .

تثبيت المؤمنين

وهم يثبتون المؤمنين بما يلقونه في قلوبهم من التأييد :
« إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، (٤)
« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ
كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ، (٥) .

(١) سورة الزخرف آية ٧٩ ، ٨٠ (٢) سورة الإسراء آية ١٣ ، ١٤

(٣) سورة ق آية ٢٠ - ٢٢ (٤) سورة الأنفال آية ١٢

(٥) المقصود بالروح هنا روح القدس وهو جبريل . سورة المجادلة : ٢٢

وهم موكلون بقبض الأرواح

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ » (١) ،
« قُلْ بِتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ » (٢) .

وهم يحيون الطيبين تحية طيبة عند قبض أرواحهم

« الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » (٣) .

ويبشرونهم بالجنة :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا
مَا تَدَّعُونَ ، نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ » (٤) .

أى إن الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، واستقاموا على الطريق الذى رسمه لعباده ،
فإن الملائكة تنزل عليهم عند الموت وتقول لهم : لا تخافوا مما أمامكم من أهوال
القبر وعذاب الآخرة ، ولا تحزنوا على ما تركتم وراءكم من أموال وأولاد ، وأبشروا
بالجنة التى وعدكم الله بها . . .

بينما يمتحنون الفسقة ، ويضربون وجوههم وأدبارهم

« الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ » (٥) .

(٢) سورة السجدة آية ١١

(١) سورة الأنعام آية ٦١

(٤) سورة فصلت آية ٣٠ - ٣٢

(٣) سورة النحل آية ٣٢

(٥) سورة النحل آية ٢٨

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأُدْبَارَهُمْ »^(١).

الإيمان بالملائكة

وإذا كان هذا هو شأن الملائكة في عالم الروح ودورهم الإيجابي في الكون والطبيعة ، وإذا كانت هذه هي صلتهم بالإنسان في هذا العالم ، وفي العالم الذي يأتي بعده — كان من الواجب الإيمان بوجودهم ، ومحاولة الاتصال بهم عن طريق تزكية النفس وتطهير القلب وعبادة الله عبادة خاشعة :

وفي الاتصال بالملائكة سمو للروح وتحقيق للحكمة العليا التي خلق الإنسان من أجلها ، وهي أداء أمانة الحياة ، والقيام بالخلافة عن الله في الأرض .

ولهذا كان الإيمان بالملائكة من البر ، ومن دلائل الصدق والتقوى

« وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ »^(٢).

إن الإيمان لا يكون له حقيقة إلا إذا آمن الإنسان بهذا العالم الروحي إيمانا لا يتطرق إليه الشك ، ولا تتسرب إليه الظنون .

وهذا هو نهج الأنبياء والمؤمنين الذين انكشفت الحقائق أمام أبصارهم ، فأدركوا من الكون ما لم يدرکه الغافلون .

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ »^(٣).

(٢) سورة البقرة آية ١٧٧

(١) سورة الأنفال آية ٥٠

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٥

إن هذا العالم الغيبي لا يدرك بالحس ولا بالعقل، بل إن الشياطين لا يمكنهم الوصول إليه :

« لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ » (١) .

وسبيل معرفته هو الوحي لأنه غيب من الغيوب .

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ، وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْمَزِيدُ الْفَخَّارُ ، قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ، مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ، إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » (٢) .

وكل ما يجب الاهتمام به أن تؤمن بهم ، وزعي حق صحبتهم ونوثق صلتنا بهم كما أرشد الرسول :

« إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ، فاستحيوهم ، وأكرموم »

(١) الصافات آية ٨

(٢) سورة ص آية ٦٥ - ٦٧

(٩ - المقيدة)

الجنّ ...

- من هم؟
- طريق العلم بهم
- المادة التي خلقوا منها
- طوائفهم
- الجن مكفون كالنفس
- استماعهم القرآن من الرسول
- الجن لا يعلم الغيب
- تسخير الجن لسليمان
- إبليس والشياطين
- كل انسان معه شيطان
- الإعراض عن هداية الله يمكن للشيطان
- التحذير من عداوة الشيطان
- لا سلطان للشيطان على المؤمنين
- مقاومة الشيطان
- حكمة خلق إبليس

الجن نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان ،
ولكنهم مجردون عن المادة البشرية ، مستترون عن الحواس ، لا يرونَ على طبيعتهم ،
ولا بصورتهم الحقيقية ، ولهم قدرة على التشكل .

طريق العلم بهم

والطريق الذى يوصلنا إلى العلم بهذا العالم هو الوحي ، وقد هدانا الكتاب
والسنة الصحيحة عن أصل المادة التى خلقوا منها ، وعن طوائفهم ، وعن مصير كل
طائفة ، وعن تكليفهم واستماعهم القرآن من الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

المادة التى خلقوا منها

يقول الله سبحانه وتعالى فى أصل المادة التى خُلِقَ منها الجنّ :
« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَآءٍ مَسْنُونٍ ، وَالْجَانَ خَلَقْنَاهُ
مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ »^(١) .
والآيتان تدلان على :

١ — أن الإنسان فى أول أمره خلق من تراب ، ثم عجن بالماء ، فصار طيناً ،
ثم مكث حتى صار حمأ^(٢) مسنوناً ، ثم يبس هذا الحمأ للتغير الرائحة حتى صار
صلصالاً^(٣) .

(١) سورة الحجر آية ٢٦ ، ٢٧

(٢) الحمأ طين أسود متغير ريحه من طول مجاورته للماء .

(٣) أى يظهر صوته إذا نقر عليه

- ٢ - وأن الجن في أول أمره خلق من نار لا دخان فيها ؛ لأن السموم هو لهب النار الخالص .
- ٣ - وأن خلق الجن سابق لخلق آدميين .

طوائف الجن

والجن طوائف :

- فمنهم الكامل في الاستقامة والطيبة وعمل الخير .
- ومنهم من هو دون ذلك .
- ومنهم البله المغفلون .
- ومنهم الكفرة ، وهم الكثرة الكاثرة .

يقول الله سبحانه في حكايته عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن :

« وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا »^(١) .

أى أن منهم الكاملون في الصلاح ، ومن هم أقل صلاحاً ، فهم مذاهب مختلفة كما هو الحال عند البشر .

ويقول الله عنهم :

« وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا وَرَشَدُوا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »^(٢) .

أى أن منهم المسلمين ، ومنهم الظالمين أنفسهم بالكفر ، فمن أسلم منهم فقد قصد الهدى بعمله ، ومن ظلم نفسه فهو حطب جهنم .

(١) سورة الجن آية ١١ (٢) سورة الجن آية ١٣ - ١٥

الجن مكلفون كالبشر

والجن مكلفون كالإنس ورسلمهم من البشر . يقول الله سبحانه :

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » (١) .

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » (٢) .

ومعنى الآيات : سنفرغ لكم لنحاسبكم حساباً دقيقاً لا يشغلنا عن ذلك شيء
يأيها الثقلان .

والثقلان مثنى ثقل وهما ، الجن والانس .

يا جماعة الجن والانس إن قدرتم أن تفروا من جانب من جوانب السموات والأرض للهرب من الحساب ففروا ، واهربوا ، ولكن لن تستطيعوا ذلك إلا بالقوة التي تفوق قوة الله ، وذلك لا يكون لاستحالته .

استماعهم القرآن من الرسول

وقد حضر وفد من الجن ، وسمعوا القرآن من النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ولم يرمهم وقت وجودهم ، ولم يعلم بحضورهم .
وفي ذلك يقول الله سبحانه :

(١) سورة الأنعام آية ١٣٠ (٢) سورة الرحمن آية ٣١ - ٣٤

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، قَالُوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ ، فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ « (١) .

وعن ابن عباس رضی الله عنه قال :

« ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ، ولا رآهم . انطلق صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما ذلك إلا من شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فمر نفر الذين أخذوا تهامة بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، وقالوا هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم وقالوا : « يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا يهدي إلى الرشد فآمننا به وكن نُشْرِكُ بِرَبِّنَا أَحَدًا » فأُنزِلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« قُلْ أُوْحِيََ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْتَمَعُ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ » (٢) .

وقال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضی الله عنهما ، إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وعلمت

(١) سورة الأحقاف آية ٢٩ - ٣٢

(٢) رواه الشيخان والترمذي والنسائي والبيهقي

حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرمهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن ، فقرأ عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل . . . انتهى

وهذا يشير إلى مارواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : إهل صحب النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن منكم أحد ؟ قال : ما صحبه من أحد ، ولكن قد افتقدناه ذات ليلة ، وهو بمكة قفلنا : اغتيل ، أو استطير ، ما فعل به ؟ فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، حتى إذا أصبحنا ، أو كان في وجه الصبح ، فإذا نحن به يحيى من حراء ، قال : فذكروا له الذى كانوا فيه ؛ فقال : أتانى داعى الجنة ، فأتيتهم ، فقرأت عليهم ، فانطلق ، فأرانا أثرهم وأثر نيرانهم ، وسألوه الزاد ، فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بكرة أوروثة علف لدوابكم .

الجن لا علم له بالغيب

علم الغيب مما استأثر الله به ، والله لا يطلع أحداً على غيبه ، إلا اذا أراد أن يبلغ من ارتضاه من رسله ما يريد إبلاغه للناس .

« عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا »^(١)

أى أنه يجعل حرساً حول هذا الرسول الذى أطلعه على بعض الغيب المعلق برسالته ، وهذا الحرم من الملائكة والشهب لحفظ هذا الغيب من تلاعب الشياطين .
وفى قصة سليمان يقول القرآن الكريم :

(١) سورة الجن آية ٢٦ ، ٢٧ .

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خِرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ أَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي
الْعَذَابِ الْمُهِينِ » (١)

تسخير الجن لسليمان عليه السلام

والله سبحانه سخر الجن لسليمان، ولم يحدث ذلك لغيره فيما نعلم:
« فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٢) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ
بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ (٣) وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ
أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٥)

« وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَّ آمْرَنَا
نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ
كَالْجُؤَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » (٦)

وطلب سليمان من جلسائه أن يأتيه أحد منهم بعرش بلقيس، فقال:
« أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ
الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ أَقْوَى أَمِينٌ » (٧)

(١) سورة سبأ آية ١٤

(٢) أصاب: أراد (٣) غواص في البحار لاستخراج اللؤلؤ

(٤) مربوط بعضهم مع بعض في السلاسل

(٥) سورة ص آية ٣٦ - ٣٩

(٦) سورة سبأ آية ١٢، ١٣ (٧) سورة النمل آية ٣٨، ٣٩

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ؛ ليقطع على صلاتى ، فأمكننى الله منه ،
فأخذته ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تظنوا إليه كلم ،
فذكرت دعوة أخى سليمان : « رب هب ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى » ،
فرددته خاسئاً .

إبليس والشياطين

إبليس اسم أعجمى ، ولهذا كان ممنوعاً من الصرف ، وقيل : إنه عربى مشتق من
الإبلاس ، وهو اليأس من رحمة الله ، أو الإبعاد عن الخير . ومنع من الصرف لأنه
لا نظير له فى الأسماء ، أو لأنه يشبه الأسماء الأعجمية .

وهو أبو الشياطين^(١) ، وأصلهم الأول^(٢) .

والشياطين هم المتمردون من عالم الجن .
وإذا كانت الملائكة هم جند الله الذين يمثلون الخير والفلاح والصلاح ، فإن
إبليس ومن معه من الشياطين هم أعداء الله الذين يمثلون الشر والفساد ، فأعمال
الملائكة والشياطين على طرفى نقيض .

إذ أن أعمال الملائكة تتجه أول ماتتجه إلى عبادة الله ، وترقية الحياة ، وتنظيم
أمر هذا الوجود ، وإقامة معالم النظام ، وهى تعمل دائماً على التأييد والتجميع
والتنسيق ، وهداية الإنسان الى الحق ، ودعاء الله أن يفر له سيئاته ويحفظه منها .

(١) الشياطين جمع شيطان ، والشيطان كل متمرد من الإنس أو الجن أو

الحيوان ، والمقصود بهم هنا المتمردون من عالم الجن

(٢) وهو سبقتى إلى يوم القيامة ، فقد طلب إنظاره فأجابه الله « إنك من المنظرين

إلى يوم الوقت المعلوم » ، وله ذرية : « أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى . الكهف

أما أعمال الشياطين فهي تتجه دائماً الى التمرد على الله ، والى التفريق والتمزيق والتخريب والتدمير ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ووصل ما أمر الله به أن يقطع فما من شرفى الأرض ، ولا فساد فى الوجود إلا ولهم به صلة .

وهم الذين زينوا الامم السابقة سوء العمل ، وحسنوا لهم الكفر والمعاصى ، ودعواهم الى تكذيب الرسل ومخالفة أوامر الله ، ولا تزال هذه أعمالهم .

« تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَرَثَتُهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (١)

وعن عياض المحاشى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال ذات يوم فى خطبته :

« ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهتتم مما علمنى يومى هذا ، كل مال نخلته عبداً حلالاً (٢) وإنى خلقت عبادة حنفاء كلهم (٣) وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، (٤) وحرمت عليهم ما أحلت لهم ، (٥) وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض ، ففقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل

(١) سورة النحل آية ٦٣ .

(٢) أى وقال ربى كل مال أعطيته لعبدى من طريق مشروع فهو حلال له كهدية من ذى سلطان وهدية من بعض الناس وصناعة وزراعة ووظيفة ونحوها . فلا محرماً على أنفسكم ما لم يحرم الله عليكم

(٣) أى على الفطرة مستعدين لقبول الهداية .

(٤) ذهبت بهم للباطل .

(٥) من الأنعام كالبحيرة ونحوها

الكتاب^(١) ، وقال إنما بعثتك لأبتليك ، وأبتلى بك^(٢) وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان^(٣) »

فالشياطين هي التي دعت إلى تحريف الدين، والخروج على الفطرة، وإلى الإشراك بالله، وحرمت الحلال، وأحلت الحرام، ولا تزال الشياطين تقعد للانسان بكل طريق صادة عن سبيل الله ومحاوله صرفه عن جلائل الأعمال .

ففي حديث سبرة بن فاكه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق :

فقد له بطريق الإسلام فقال أتسلم ، وتترك دينك ودين آبائك؟ فعصاه، وأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال : أتهاجر؟ أتدع أرضك وسماؤك؟ فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال أتجاهد وهو تلف النفس والمال ، فتقاتل ، فتقتل فتتكح نساؤك ويقسم مالك؟ فعصاه وجاهد .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك ، فمات كان حقاً على الله

أن يدخله الجنة . »

والشيطان هو الذى قام بدور رئيسى فى القضاء على دعوة الإسلام فى أول صدام له مع أعدائه

(١) نظر إلى أهل الأرض فغضب عليهم غضباً شديداً قبل بعثته نبينا

محمد صلى الله عليه وسلم الافريقا من أهل الكتاب الأول لم يغيروه

(٢) لأبتليك هل تقوم بحق الرسالة أولاً وأبتلى بك الناس هل يؤمنون بك

أو يكفرون

(٣) لا يغسله الماء لأنه لابس فى صحف بل محفوظ فى الصدور يقرأ فى كل حال

« وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتْيَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بِرِءٍ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (١)

وهذا الشيطان هو الذي يزني لكل فرد ما تهفو إليه نفسه ، ويميل إليه هواه من حب للجنس ، أو طمع في المال ، أو حرص على المنصب ، أو تطلع إلى الجاه ، أو إثارة للاستبداد ، أو ميل إلى الطغيان ، بل إنه ليتسلط على المتدينين أنفسهم ؛ ليزيدوا في شرع الله أو ينقصوا منه ليطوعوا الدين لأهوائهم ، ويخضعوه لشهواتهم وهو الذي يفرى العداوة والبغضاء بين الناس ، فيفرق بين الأخ وأخيه ، وبين الزوج وزوجه ، وبين طوائف الأمة وجماعاتها .

وهو الذي يوقد نيران الحروب بين الأمم والشعوب ، وينفخ فيها تهللك الحرث والنسل ، وتأتي على الأخضر واليابس وكما كان الشيطان أقدر على الشركان أقرب منزلة وأعلى قدراً لدى رئيسه إبليس لعنه الله .

عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة .. يحيى أحدهم ، فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، ثم يحيى أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت »

ان الفساد الجنسي ، والفساد الخلقى ، والفساد الاجتماعى ، والفساد السياسى ، والفساد

الاقتصادى، وكل ما يعانىة الإنسان من فتن وويلات إنما هو من نتاج إبليس وجنوده الأشرار .

كل إنسان معه شيطان (١)

وكما أمد الله الإنسان بملك يهديه، ويؤيده فإنه كذلك يمده بشيطان يوسوس له ويزين له سوء، ويفريه بالمنكر، ويدعوه إلى الفتنة، يستوى في ذلك الأنبياء وغيرهم « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا » (٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم من عندى ليلاً ، ففرت عليه ، فجاء ، فرأى ما أصنع ، فقال مالك يا عائشة أغرتي ؟ قلت : ومالى لا يفار مثلى على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ قلت : يا رسول الله أو معى شيطان ؟ قال : نعم . قلت : ومع كل انسان شيطان ؟ قال نعم ، قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم » (٣)

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(١) ليس فى العقل ولا فى العلم ما يمنع من روح شرير يحاول إغواء بنى آدم ليتلوا به فى حياتهم ، والعالم الروحانى عالم واسع ، وقد ثبت وجوده علمياً ، وقد مر على البشر قرون وأزمان وهم يجهلون الميكروبات وأثرها فى حياتهم ، ثم اكتشفوها أخيراً ، فهل حينما كانوا يجهلون كانت غير موجودة ، إن الجهل بالشىء لا يعنى عدم وجوده .

« ما منكم من أحد الا وقد وُكِّلَ به قرين من الجن . قالوا : وَايَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟
قال : وَايَايَ الْآنَ إِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ ، فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي بِالْجُبْحِرِ » (١)

الإعراض عن هداية الله يمكن للشيطان

والشيطان لا يتمكن من نفس الإنسان إلا إذا أعرض عن هداية الله ، وخرج
عن النهج المرسوم .

فإذا أعرض الإنسان عن الطريق المرسوم له عاقبه الله بتمكين الشيطان منه ،
فيوجهه وجهة الشر والفساد في كل قول وفي كل فعل .

« وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَلَا يَمُرُّ
بِصُدُورِهِمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ
بِنَبِيِّ وَمَنْ بَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّبِعُ الْقَرِينَ ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ
أَنفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » (٢)

ومع التماهي في الغي والضلال يستحوذ الشيطان على النفس الإنسانية، ويستولى
عليها استيلاء كاملاً ؛ حتى يبلغ الإنسان أن يكون جندياً لإبليس ، أو عضواً في
جماعة الشياطين .

« اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ
الْأَيْمَانُ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » (٣) .

(١) رواه مسلم (٢) سورة الزخرف آية ٣٦ ، ٣٩

(٣) سورة المجادلة آية ١٩

وحين يصل الإنسان إلى هذا المستوى ، ويهبط إلى هذا الدرك يكون قد بلغ النهاية في الانحطاط الروحي والكفر بذخائر النفس .

وفي هذا الدرك تختل المقاييس ، وتضطرب الموازين ، وتلتبس الحقائق ، ويعلو سلطان الباطل ، وتسود شريعة الغاب ، ويتعادى الناس تعادى الحيوانات المفترسة ، ويصبح الإنسان وهو أبداع ما أنشأته العناية الإلهية أداة من أدوات الشر والفساد ، وعاملاً من عوامل الهدم والتخريب .

« أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوُّزُّهُمْ أَزًّا » (١)

بل يصل الإنسان إلى الحالة التي يتبرأ الشيطان فيها منه .

« كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » (٢)

التحذير من عداوة الشيطان

إن الشيطان يمثل الشرفى الأرض ، ويعمل دائماً على تدمير حياة الإنسان بزحزحته عن هداية الله ، وإبعاده عن منهج الحق والرشاد .

لهذا حذرنا الله من كيده ، وأخبرنا بعداوته ، ودعا إلى مقاومته بكل وسيلة حتى يضعف سلطانه ، وتخف شروره وآثامه ، فقال :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » (٣)

(١) سورة مريم آية ٨٣ أى تغريهم بالمعاصى إغراءً وتزعمهم إليها إزجاجاً شديداً .

(٢) سورة الحشر آية ١٦ . (٣) سورة فاطر آية ٦ .

وقص علينا من عداوته لأبينا آدم عليه السلام ما فيه العظة البالغة ، فقد استطاع أن يُغريه بالأكل من الشجرة ، وأن يخرج من الجنة بكذبه وخداعه ، وأن يوقعه في مخالفة أمر الله وارتكاب نهيهِ ، ثم قال عقب ذلك :

« يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَفْزَعُ عَنْهُمَا لِإِسْمَهِمَا لِيرِيهَهُمَا سَوْآتَهُمَا لِإِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » (١) .

وبين للإنسان ما أخذه الشيطان على نفسه منذ خصومته لآدم ، أنه سيقعد على الصراط المستقيم بغوى الناس ويضلهم . قال :

« أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِ اٰخَرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ (٢) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ، قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ، وَاسْتَفْزَزَ (٣) مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ (٤) وَأَجْلِبْ (٥) عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » (٦) .

وفي سورة الاعراف يقول الله تعالى :

« قَالَ فَمَا آغْوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ، صِرَاطَكَ (٧) الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَا تَيْسَّرُهُمْ

(١) سورة الاعراف آية ٢٧ (٢) أتصرفن فيهم بالوسوسة

(٣) الاستفزاز : الحث بشدة (٤) وسوستك

(٥) أى صح عليهم بجفدك مشاة وراكبين .

(٦) سورة الإسراء : ٦٤

(٧) أى على الصراط وهو طريق الله

مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ^(١) وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ^(٢) .

وكان حكمه هذا ظناً وقد تحقق :

« وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٣) »

وفي سورة النساء يقول الله سبحانه :

« إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْهَاءً^(٤) وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا^(٥) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا^(٦) ، وَلَا ضَلِيلَنَّهُمْ^(٧) وَلَا مُمِيزِينَ^(٨) وَلَا مَرْتَبِينَ^(٩) فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَسْرَبِينَ^(١٠) فَلْيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ^(١١) وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا . يَعِدُهُمْ^(١٢)

(١) أى لا يترك جهة إلا هم عليهم منها .

(٢) سورة الأعراف آية ١٦ . (٣) سورة سبأ آية ٢٠ .

(٤) أصنام ذات أسماء مؤنثة — اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى —

(٥) شديد التمرد والخروج على الطاعة

(٦) معيناً ومحمّماً استيلاؤه عليه (٧) أضلنهم عن الحق بالوسوسة

(٨) أى أن الشيطان حلف أن يأمر أتباعه بقطع آذان الأنعام تعظيماً للأصنام

وكان الوثنيون يقطعون أذن الناقة ويشقونها إذا ولدت خمس بطون وجاءت فى المرة الخامسة بذكر ، وكان ذلك علامة على أنها ملك للأصنام لا تتركب ولا ينتفع بها أحد .

(٩) أى يأمرهم بسوء التصرف فيتغير خلق الله ولا سيما الدين الذى هو فطرة .

(١٠) يعدهم بالفقر إذا أنفقوا فى سبيل الله وبالغنى إذا غشوا ولعبوا القمار مثلما ونحو

ذلك . . ويمنيهم الباطل الذى لا حقيقة له . وما يعدهم فى الحقيقة إلا بما يفر ويضر

وليس له أصل ولا نفع .

وَيَمْنِيهِمْ^(١) وَمَا يَعْزُبُ عَنْهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^(٢) .

ويعلمنا أن الشيطان جاد في إلقاء خواطر السوء ، ومهمته بتقوية دواعي الشر والباطل في النفس الإنسانية .

« الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ »^(٣) .

أى أن الشيطان يوسوس للإنسان ، ويلقى في نفسه بأن الاتفاق يذهب بالمال ، ويأمره بالإمسك والبخل والحرص على المال ومنع الزكاة .

ومن ثم كان من الواجب الحذر منه ، واتقاء شروره وآثامه .

« وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ

بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »^(٤) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ

الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ »^(٥) .

ومن أبلغ ما ذكره القرآن في الترهيب من متابعة الشيطان ما جاء في سورة الأنعام .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ،

وَقَالَ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي

أَجَّلْتَ لَنَا »^(٦) .

أى أن الله يقول يوم الحشر للجن : قد استكثرتم من إغواء الإنس ، وقال

(١) يشغلهم بالأمانى الباطنة كطول العمر وعدم البعث والجزاء على العمل

حتى يغفلوا عن الاستعداد للقاء الله . (٢) سورة النساء آية ١١٧

(٣) سورة البقرة آية ٢٦٨ : (٤) سورة الأنعام آية ١٤٢

(٥) سورة النور آية ٢١ (٦) سورة الأنعام آية ١٢٨

عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ؛ ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغماً إلى غمهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : « إن الله وعدكم وعد الحق » على السنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً ، وأما أنا فوعدتكم ، فأخلفتكم ، كما قال

الله تعالى « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا »

ثم قال : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » .

أى ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ، ولا حجة فيما وعدتكم به إلا أن دعوتكم ، فاستجبت لى بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم ، فصرتم إلى ما أتم فيه « فلا تلومونى » اليوم « ولوموا أنفسكم » فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج ، واتبعتونى بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل « ما أنا بمصرخكم » بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أتم فيه ، « وما أتم بمصرخى » بنافعى بانقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال « إني كفرت بما أشركتمونى من قبل » قال قتادة : أى بسبب ما أشركتمونى من قبل ، وقال ابن جرير : يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل .. وهذا الذى قاله هو الراجح .. وحين يقف الإنسان وقربنه أمام الله فى الآخرة يقول الإنسان : يارب هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، فيقول شيطانه الذى وكل به : « ربنا ما أطعنيته ولكن كان فى ضلال بعيد » فيقول الله :

« لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ (١) وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ

لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » (٢)

(١) أى لا تختصموا عندى فقد أعدرت إليكم على السنة الرسل وأنزلت إليكم

الكتاب وقامت عليكم الحجج والبراهين . (٢) سورة ق آية ٢٧ - ٢٩

لاسلطان للشيطان على المؤمن

والإيمان يفيض على النفس إشراقاً ، ويملاً القلوب نوراً ، وإذا أشرقت النفس واستنار القلب أمحى كل ما يوسوس به الشيطان .

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » (١)

وإذا ألم بالقلب الموصول بالله من مس الشيطان شيء فسرعان ما يستيقظ :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » (٢)

وقد استطاع الشيطان أن يفرى آدم بالأكل من الشجرة ، وأن يوقعه فيما حظره الله عليه ، وأن يحرك في نفسه بواعث الهوى ودواعي الشر إغراء وخداعاً .

« وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ، فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ

(١) سورة النحل آية ٩٨ — ١٠٠ ، في الآية الأولى نفي سلطانه على المؤمنين المتوكلين ، وفي الثانية أثبت سلطانه على من تولاه وعلى أهل الشرك . . والمقصود بالسلطان الطريق الذي يتسلط به على الغير بالإغواء والإضلال .

(٢) سورة الإعراف آية ٢٠١ .

الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ^(١)»

إلا أن نوازع الخير ودواعيه تيقظت في قلب آدم وحواء ، وعلما أنه خدعهما ومكر بهما ، فتغلبت هذه النوازع والدواعي على وسوسة الشيطان وحظه من النفس ، فتابا إلى الله ، وأنابا قائلين :

« رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ^(٢)

فقبل الله توبتهما واستجاب دعاءهما :

« فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ^(٣)

« وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » ^(٤)

وبالتوبة والإجابة إلى الله تغلب جانب الخير على جانب الشر ، ومتى تغلب جانب الخير على جانب الشر في نفس الإنسان تعرض لهداية الله ، وكان أهلا للاجتماع والاصطفاء .

والله لم يذكر لنا هذه القصة الا لتكون مثلا حيا لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان ، فالإنسان لم يخلق ملكا منزها عن النقائص ، وإنما خلق وعنده استعداد للبر والإثم ، والصواب والخطأ ، والخير والشر ، والطاعة والمعصية ، والتقوى والفجور .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » ^(٥)

(١) سورة الأعراف آية ٢٠-٢٢ (٢) سورة الأعراف آية ٢٣

(٣) سورة البقرة آية ٣٧ (٤) سورة طه آية ١٢٠ - ١٢١

(٥) سورة الشمس آية ٧ ، ٨

والإنسان بمقتضى خلافته عن الله فى الأرض مكلف بأن ينمى فى نفسه معانى البرِّ والصواب والخير والطاعة والتقوى ، وأن يقاوم نوازع الإثم والخطأ والشر والفجور حتى يبلغ الكمال الروحى الذى أراده الله له .

وفى هذه المعركة يتدخل الشيطان ؛ ليصرف الإنسان عن تنمية قواه العليا من جانب ، وليضعف من روح المقاومة بطريق الخداع والإغراء والتزيين من جانب آخر . ومن ثم كان واجبا على الإنسان أن يحذر مكاييد الشيطان ويعرف أساليبه التى يتخذها ؛ ليصرف الإنسان عن وظيفته الأولى فى هذه الحياة .

فاذا زلت به قدم ، أو تورط فى الإثم ، أو جانبه صواب ، أو مارس شرًّا ، أو اقترف معصية ، أو ارتكب فجورا ، فأمامه السبيل الذى رسمه له أبوه آدم من التوبة ، واستئناف حياة أزكى وأطهر .

وبهذا يخلص الإنسان من سلطان الشيطان وسيطرته عليه .

مقاومة الشيطان

إن الله لم يذكر فى القرآن النفس الأمارة بالسوء ، ولا النفس اللوامة إلا مرة واحدة ، ولكنه ذكر الشيطان وكرر التحذير منه فى صور متنوعة ، وما فعل ذلك إلا ليكون الإنسان منه على حذر ؛ كي لا يضل ، ولا يشقى ؛ ذلك أن عمل الشيطان فى النفس مثل عمل الميكروب فى الجسم ، والميكروب ينتهز فرصة ضعف الجسم فيهجم عليه محاولا القضاء عليه والفتك به ، ولا خلاص للجسم من عمل الميكروب إلا إذا كانت له حصانة ، وفيه مناعة تبطل عمل الميكروب ، وتقضى على ضراوته .

وكذلك الشيطان ينتهز فرصة ضعف النفس ومرضها ، فيهجم عليها محاولا

إفسادها .

ولا خلاص منه إلا إذا صحت النفس من أمراضها ، التي هي المداخل الحقيقية للشيطان ووسوسته .

وأعراض النفس التي هي مداخل الشيطان هي نقائص الانسان التي يجب عليه أن يتخلص منها حتى لا يكون للشيطان سبيل عليه ، وهذه الأمراض أو هذه النقائص هي على سبيل المثال لا الحصر^(١) : الضعف ، واليأس ، والقنوط ، والبطر ، والفرح ، والمعجب ، والفخر ، والظلم ، والبغى ، والجحود ، والكنود ، والعجلة ، واللطيش ، والسفه ، والبخل ، والشح ، والحرص ، والجدل ، والمراء ، والشك ، والريبة ، والجهل ، والغفلة ، والدد في الخصومة ، والغرور ، والادعاء الكاذب ، والهلع ، والجزع ، والمنع ، والتمرد ، والعناد ، والطغيان ، وتجاوز الحدود ، وحب المال والافتنان بالدنيا ، فهذه هي أمراض النفس ، وبواسطتها يتدخل الشيطان ليدمر حياة الإنسان ، وليزحزحه عن فضائله العليا ، ولا سبيل إلى طرده ومعالجة وسوسته وإغرائه إلا إذا عولجت النفس أولاً عن طريق المجاهدة حتى تبرأ من هذه الأمراض جميعها ، وتعود إليها الصحة والعافية ، وتكون نفساً مطمئنة بالحق والخير .

وحينئذ يكون ذكر الله ، والاستمادة به من الشيطان ، والتبرى من الحول والقوة ، وإسلام الوجه لقيوم السموات والأرض مما يقوى من معنويات الانسان ، ويرفع من مستواه الروحي ، حتى يصل الانسان إلى درجة يخاف فيها الشيطان من أن يلقاه في طريق من الطرق . كما حدث لعمر بن الخطاب رضي الله عنه . .

روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر :

« يا ابن الخطاب ما لقيك الشيطان سالكا فجاً^(٢) إلا سلك فجاً غير فجاجك »

(١) يراجع كتابنا عناصر القوة . (٢) فجا : طريقاً .

إن سعادة الانسان لا تتم إلا بكبح جماح النفس ، والتغلب على هواها باتباع
وحي الله ، ومحاربة نزغات الشيطان .

« وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ
يَحْضُرُونِ » (١)

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ
الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » (٢) .

حكمة خلق إبليس

وقد يقال لم خلق الله إبليس يوسوس بالشر ، ويدعو إلى محادة الله ومحاربة
تعاليمه ، وقد أجاب عن ذلك بعض العلماء فقال :

أنه يظهر للعباد قدرة الله تعالى على خلق المتضادات المتقابلات . فخلق هذه الذات
التي هي أخصب الذوات وسبب كل شر ، في مقابلة ذات جبريل التي هي من أشرف
الذوات وأطهرها وأزكاها . وهي سبب كل خير ، فتبارك الله خلق هذا وهذا .
كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار ، والدواء والداء ، والحياة ، والموت .
والحسن والقبيح ، والخير والشر ، وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته ومملكته
وسلطانه ، فانه خلق هذه المتضادات ، وقابل بعضها ببعض وجعلها مجال تصرفه
وتدبيره ، فخلو العالم عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكال تصرفه وتدبيره مملكته
ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية : مثل القهار . والمنتقم . والعدل . والضار ،
والشديد العقاب . والسريع الحساب . وذى البطش الشديد ، والخافض . والرافع .
والمعز . والمذل . وأن ههنا الأسماء والأفعال كالات لا بد من وجود متعلما ، ولو كان
الجن والإنس على طبيعة لللائكة لم يظن أثر هذه الأسماء .

ومنها ظهور آثار أسمائه المتضمنة كلاًه ، وعفوه ، ومغفرته ، وستره ، وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبده ، فلو لخلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأشياء لتعطلت هذه الحكم والفوائد . وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله :

« لو لم تذبوا الذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم »^(١)

ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء فى غير موضعه ، لا ينزله فى غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه ، وتمام حكيمته ، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ، ويشكر له جميل صنعه ، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ، فلو قرر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ، ولفاتت مصالح عديدة ، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذى هو أعظم من الشر الذى فى تلك الأسباب ، وهذا كالشمس والمطر والرياح التى فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر .

ومنها حصول الطاعات المتنوعة التى لو لخلق إبليس لما حصلت ، فإن طاعة الجهاد من أحب أنواع الطاعات ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه الطاعة وتوابعها من الموالاة لله تعالى والمعاداة فيه ، وطاعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى ، والتوبة ، والاستغفار ، والصبر ، والاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ، ويعصمه من كيده وأذاه ، إلى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها .

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه

الكتب السماوية

- الكتب المدونة
- القرآن الكريم آخر الكتب
- تحريف التوراة
- تحريف الإنجيل
- تصديق القرآن للكتب السابقة
- الطريق إلى الحقيقة

إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى ووصايا ، أوحاها إلى رسله وأنبيائه :

منها ما دُونَ في كتب ، ومنها ما لا علم لنا به . فلكل نبيِّ رسالة بلغها قومه :

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ،
وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » (١) .

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » (٢) .

والكتب المدونة هي :

التوراة التي نزلت على موسى

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ
شُهَدَاءً » (٣) .

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ .
قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ
قَرَاطِيسَ يُبَدِّلُونَهَا وَيَتَخَفُونَ كَثِيراً » (٤) .

والإنجيل الذي نزل على عيسى

« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

(٢) سورة آل عمران آية ١٨٤

(٤) سورة الأنعام آية ٩١

(١) سورة البقرة آية ٢١٣

(٣) سورة المائدة آية ٤٤

وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ^(١) .

والزبور الذي نزل على داود

« وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ، ^(٢) »

ومنها صحف إبراهيم وموسى

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ
وِازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ
يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى . وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » ^(٣) .

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ، بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لِنِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى » ^(٤) .

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : « قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟

قال : كانت أمثالا كلها :

أيها الملك المسلط ^(٥) المبتلى ^(٦) المغرور ^(٧) إلى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها
على بعض ، ولكنى بعثتك لتردعنى دعوة المظلوم ، فإني لا أردّها وإن كانت من كافر .

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله — أن يكون له ساعات :

(٢) سورة الاسراء آية ٥٥

(١) سورة المائدة آية ٤٦

(٤) سورة الاعلى آية ١٤ — ١٩

(٣) سورة النجم آية ٣٦ — ٤٢

(٦) المبتلى : المختبر بالحكم

(٥) المسلط : صاحب السلطان النافذ

(٧) المغرور : الناسى حقوق الله الذى أصابته الغفلة

فساعة يناجى ^(١) فيها ربه .

وساعة يحاسب فيها نفسه .

وساعة يتفكر فيها فى صنع الله عز وجل

وساعة يخلو فيها لحاجته من المظم والمشرب .

وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً ^(٢) إلا لثلاث :

تزود لمعاد ^(٣) أو لمعاش ^(٤)

أو لذة فى غير محرّم

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه

ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ^(٥)

قلت يا رسول الله :

فا كانت صحف موسى عليه السلام ؟

قال : كانت عبراً ^(٦) كلها :

عجبت لمن أيقن بالموت ، ثم هو يفرح

عجبت لمن أيقن بالنار ، ثم هو يضحك

عجبت لمن أيقن بالقدّر ، ثم هو ينصب ^(٧)

عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثم اطمأن إليها

(١) يناجى : يدعو ربه

(٢) عمل صالح للآخرة

(٣) ظاعناً : مرتحلاً

(٤) سعى لعيشه

(٥) يعنيه : يفيد

(٦) عبرا : عظات

(٧) ينصب : يتعب

عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ، ثم لا يعمل

قلت يا رسول الله :

أوصني . .

قال : أوصيك بتقوى الله ، فإنها رأسُ الأمرِ كله .

قلت : يا رسول الله زدني

قال : عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، فإنه نور لك في الأرض ،

وذخر لك في السماء

قلت : يا رسول الله زدني

قال : إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ^(١) ، ويذهب بنور الوجه

قلت : يا رسول الله زدني

قال : عليك بالجهاد فإنه رهبانية ^(٢) أمتي .

قلت : يا رسول الله زدني .

قال : أحبَّ المساكين وجالسهم .

قلت : يا رسول الله زدني .

قال : انظر إلى من هو تحتك ، ولا تنظر إلى ما هو فوقك ؛ فإنه أجدر أن

لا تزدرى نعمة الله عنك .

قلت : يا رسول الله زدني .

قال : قل الحق وإن كان مرأاً .

(١) فلا يتأثر بالمواعظ (٢) انقطاع إلى طاعة الله وتبلي

قلت : يا رسول الله زدنى .

قال : ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تآنى ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك ، وتجد عليهم فيما تآنى .

ثم ضرب بيده على صدرى .

فقال : يا أبا ذر لا عقل كالنديير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب ^(١) كحُسن

الخلق ^(٢) .

والقرآن الكريم وهو آخر الكتب السماوية نزولاً :

« اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ^(٣) .

مزايا القرآن

وللقرآن الكريم مزايا تميزها عن الكتب السماوية التي تقدمته وهي :

١ - أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية التي تضمنتها التوراة والإنجيل وسائر ما أنزل الله من وصايا ، وأنه مؤيد للحق الذي جاء بها : من عبادة الله وحده والإيمان برسله ، والتصديق بالجزء ، ووجوب إقامة الحق ، والتخلق بكمكارم الأخلاق .

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ^(٤) »

(١) شرف

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم وقال صحيح الأسناد .

(٣) سورة آل عمران آية ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) المقصود من الكتاب هنا الجنس فبشمل التوراة والإنجيل .

وَمُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ . فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا» (١) .

أى أن الله أنزل القرآن الكريم على النبي مقترناً بالحق في كل ما جاء به ، ومصداقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين ، ورقياً عليها : يقر ما فيها من حق ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتصحيف ، ثم يأمر الله نبيه أن يحكم بين الناس : مسلمين وكتابين بما أنزل الله في القرآن متجنباً أهواءهم .

وأنه سبحانه جعل لكل أمة شريعة وطريقة في الأحكام العملية تناسب استعدادها . أما أصول العقائد والعبادات والآداب والحلال والحرام وما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان فإنها واحدة في الأديان كلها .

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (٢)

ثم نسخت الأحكام العملية السابقة بالشريعة الإسلامية ، والأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان .

وأصبحت العقيدة واحدة ، والشريعة واحدة للناس جميعاً .

٢ - وتعاليم القرآن هي كلمة الله الأخيرة لهداية البشر أراد الله لها أن تبقى على الدهر ، وتخلد على الزمن ، فصانها من أن تمتد إليها يد بالتحريف ، أو التصحيف ، أو التفسير ، أو التبديل .

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »^(١)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »^(٢)

والغاية من ذلك أن تبقى حجة الله على الناس قائمة حتى يرث الله الأرض
ومن عليها .

٣ — وهذا القرآن الذي أراد الله له الخلود لا يتصور أن يأتي يوم يصل فيه
العلم إلى حقيقة ما تتعارض مع أى حقيقة من حقائقه ، فالقرآن كلام الله والكون
عمل الله ، وكلام الله وعمله لا يتناقضان أبداً ، بل يصدق أحدهما الآخر ، ومن ثم فقد
جاءت الحقائق العلمية مصدقة لما سبق به الكتاب ، تحقيقاً لقوله سبحانه :

« سَفَرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ
يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »^(٣)

٤ — والله يريد لكلمته أن تذاغ ، وتصل إلى العقول والأسماع ، وتتحول
إلى واقع عملي ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت ميسرة للذكر والحفظ والفهم ، ولهذا
جاء القرآن سهلاً ليس فيه ما يشق على الناس فهمه ، أو يصعب عليهم العمل به .
« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ »^(٤)

ومن تيسيره أن حفظه الرجال والنساء والصغار والكبار والأغنياء والفقراء
ويرددونه في البيوت والمساجد ، ولا تزال أصوات القراء تدوى به في كل ناحية ،

(١) سورة فصلت آية ٤١ ، ٤٢ (٢) سورة الحجر آية ٩

(٣) سورة فصلت آية ٥٣ (٤) سورة القمر آية ١٧

ولا نعلم أن كتاباً من الكتب غير القرآن نال من هذه الميزة بعض ما اختص به القرآن الكريم .

والقرآن بهذا لا يساميه أو يقاربه كتاب آخر في تأثيره وهدايته ، ولا في موضوعه وسمو أغراضه . ومن ثم كان خير الكتب وأفضلها على الإطلاق .

تحريف التوراة

إن الإيمان بالتوراة التي نزلت على موسى ، ركن من أركان الإيمان ، وقد أخبر الله أن فيها هدى ونوراً وأثنى عليها بقوله :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » (١)

إلا أن هذه التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام غير موجودة بالمرّة ، كما هو مسلم من الجميع .

أما التوراة المتداولة الآن فقد قام بكتابتها أكثر من كاتب ، وفي أزمان مختلفة .

وقد دخلها التحريف ، يقول المرحوم الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى :

« ومن أدلة التحريف الحسية أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف

التوراة المتداولة عند اليهود » انتهى .

وقد أثبت القرآن هذا التحريف ، ونعى على اليهود التغيير والتبديل الذى أدخلوه

على التوراة .

« أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا بِكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ

ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٢)

(٢) سورة البقرة آية ٧٥

(١) سورة الأنبياء آية ٤٨

فهم تجرؤوا على كتاب الله ، فحرفوه ليخفوا ما فيه من الحق ، ونسوا قدراً مما ذكرهم الله به في التوراة .

فالذي عندهم من التوراة الصحيحة هو بعضها فقط .

« وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ » (١)

وأول داييل على صحة نقد القرآن للتوراة المتداولة ، وأنها ليست كلها هي توراة موسى ، التي جعلها الله نوراً وهدى ، ما جاء في التوراة من وصف الله بما لا يليق بجلاله وكاله ، ففي سفر التكوين (٣ : ٢٢) وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً بالخير والشر .

وفيه « ٦ : ٦ » « فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه » .

فهل يعقل أن هذا من كلام الله ، وهل يصحح أن ينسب إليه الحزن والأسف على شيء عمله .

وكذلك ما جاء فيها مما يمس شرف الأنبياء ويتنافى مع ما لهم من عصمة ومكانة رفيعة وخُلق متين ، فقالوا عن إبراهيم : إنه كذاب ، وأن لوطاً زناً بابنتيه ومهرن دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل ، وداود زناً بزوجة أوريا ، وسليمان عبد الأصنام لإرضاء لزوجته .

فهذه دليـل على التحريف أقوى من هذا ، لقد اضطر الفقاد من مصلحي اليهود أنفسهم إلى الاعتراف بهذه الحقيقة : وأن التوراة قد حرّنت وقد أورد مذهبهم حاخام باريز أجوليان ويل في كتابه اليهودية .

تحريف الإنجيل:

والإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام هو مثل التوراة التي نزلت على موسى، كلاهما كلام الله، وفيهما هدى ونور إلا أن الإنجيل قد لحقه ما لحق التوراة من التحريف:

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » (١).

ويكفي لصحة التدليل على التحريف في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى الآن، أنها أربعة اختيرت من نحو سبعين انجيلاً، وهذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام. ومؤلفوها معروفون، وأسمائهم مكتوبة عليها وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هي رأى بولس دون سائر الحواريين ودون أقرب الأقربين إلى عيسى.

وقد وجد في مكتبة أمير من الأمراء في باريس نسخة من إنجيل برنابه، وقد طبعت مطبعة المنار بعد ترجمته إلى العربية، وهو يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة كبيرة.

معنى تصديق القرآن للكتب السابقة:

وإذا كان التحريف في التوراة والإنجيل ثابتاً ثبوتاً حقيقياً لا ريب فيه بنص القرآن من جهة، وبالأدلة الحسية من جهة أخرى، فما معنى أن القرآن جاء مصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية؟

معنى ذلك أن القرآن جاء مؤيداً للحق الذي ورد فيها كما سبقت إليه الإشارة من عبادة الله وحده والإيمان برسله ، والتصديق بالجزاء ، ورعاية الحق والعدل ، والتخلق بالأخلاق الصالحة . وهو في الوقت ذاته مهممنا عليها ومبيناً ما وقع فيها من أخطاء وأغلاط ، وتحريف وتصحيف ، وتغيير وتبديل .

وإذا انتفت هذه الأخطاء التي أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية ، وزوروا على الناس باسم الله ظهر الحق ، واستبان ، والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل .

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ » (١) .

وإقامتها لا تتحقق إلا بعد تطهيرها من الزيف .

الطريق إلى الحقيقة

إن من يبتغي الحق ، ويريد الوصول إلى التعاليم الإلهية الصحيحة ، لا يجد أمامه غير القرآن الكريم ، فهو الكتاب الذي حفظت أصوله ، وسلمت تعاليمه ، وتلقته الأمة عن محمد ، عن جبريل ، عن الله ، الأمر الذي لم يتوفر لكتاب مثله . وأنه الجامع لأسمى المبادئ ، وأقوم المناهج وخير النظم ، والحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من حيث العقائد ، والعبادات ، والآداب ، والمعاملات ، والنظم ، وإنه الكفيل بخلق الفرد الكامل ، والأسرة الفاضلة ، والمجتمع الصالح ، والحكومة العادلة ، والكيان القوي

الذى يقيم الحق والعدل ، ويرفع الظلم ، ويدفع العدوان ، وأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق
الخلافة ووراثة الأرض .

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١) .

الرسول

- لكل أمة رسول
- الرسول بشر
- الرسول رجل
- الغرض من بعثة الرسل
- عصمة الأنبياء
- ما نسب، إلى الرسل
- أولو العزم من الرسل
- ختم النبوة والرسالة
- الأعمال الكبرى التي قام بها الرسول
- دلائل صدقه
- التبشير بظهوره
- آيات الرسل
- الفرق بين آيات الرسل وغيرها من الخوارق
- الفرق بين المعجزة والكرامة
- معجزة خاتم الأنبياء

أوجب الله على المسلم أن يؤمن بجميع رسل الله ، دون تفریق بينهم ، فقال سبحانه :
 « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ ^(١)
 مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ^(٢) » .

وبين أن هذا هو إيمان المؤمنين ، فقال سبحانه :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا
 وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ^(٣) » .

وأخبر أن البرّ في هذا الإيمان فقال :

« وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
 وَالنَّبِيِّينَ ^(٤) » .

وإذا آمن الإنسان ببعض الرسل ، ولم يؤمن بالبعض الآخر ، وفرق بينهم
 في الإيمان فهو كافر : قال سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ

(١) النبي هو من أوحى إليه بشريعة ليعمل بها في نفسه ، والرسول هو من

أوحى إليه بشريعة ليعمل بها في نفسه وليبلغها غيره .

(٢) سورة البقرة آية ١٣٦ (٣) سورة البقرة آية ٢٨٥

(٤) سورة البقرة آية ١٧٧

وَيَقُولُونَ نُوٌّ مِنْ بَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ، أَوَلَيْسَ لَهُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۗ» (١)

وهؤلاء الرسل منهم من قصه الله علينا فذكرهم بأسمائهم ، ومنهم من لم يقصصه علينا قال سبحانه :

«وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ» (٢)

أما الذين قصهم الله علينا فعددهم خمسة وعشرون . وهم المذكورون في قوله :
«وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَبُوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ» (٣)

وقد جمعت هذه الآيات ثمانية عشر رسولا ، ويجب الإيمان بسبعة آخرين المذكورين في عدة آيات .

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ » (٥)

(١) سورة النساء آية ١٥٠ ، ١٥١

(٢) سورة النساء آية ١٦٤

(٣) سورة الأنعام الآيات ٨٣ - ٨٦

(٤) سورة آل عمران آية ٣٣

« وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا »^(١)

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا »^(٢)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا »^(٣)

« وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي

رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ »^(٤)

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

النَّبِيِّينَ »^(٥)

وقد ورد أن عدد الأنبياء (١٢٤) .

لم تخل أمة من رسول :

وهؤلاء الرسل أرسلهم الله إلى الأمم في جميع العصور المتطاولة ، فلم تخل أمة

من رسول بدعوها إلى الله ، ويرشدها إلى الحق . يقول الله سبحانه :

« تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ »^(٦)

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »^(٧)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ »^(٨)

« وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »^(٩)

(١) سورة الأعراف آية ٦٥ . (٢) سورة هود آية ٦١ .

(٣) سورة هود آية ٨٤ (٤) سورة الأنبياء آية ٨٥ ، ٨٦ .

(٥) سورة الأحزاب آية ٤٠ (٦) سورة النحل آية ٦٣ .

(٧) سورة فاطر آية ٢٤ (٨) سورة يونس آية ٤٧ .

(٩) سورة الرعد آية ٧ .

والرسول من نفس الأمة

والرسول بشر من نفس الأمة ، وإن كان من معدن كريم خصه الله بمواهب عقلية وروحية ، ليستعد لتلقي الوحي عن الله .

« اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » (١)

« اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » (٢)

وإنما خص الله الرسول بمزايا وفضائل ليقوى على الإضطلاع بأعباء الرسالة ، وليكون مثالا تقتدى به في أمور الدين والدنيا ، ولو لم يتميز رسل الله بهذه الخصائص العقلية والروحية بأن انحطت فطرهم أو ضعفت عقولهم لما كانوا أهلا لحل هداية الله إلى الناس .

والرسول رجل يأكل الطعام

والرسول رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، يقول الله سبحانه :

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ

فِي الْأَسْوَاقِ » (٣)

والرسول يتزوج

والرسول يتزوج ويولد له كغيره من البشر .

« وَكَفَدَ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » (٤)

(٢) سورة الحج آية ٧٥

(١) سورة الأنعام آية ١٢١

(٤) سورة الرعد آية ٣٨

(٣) سورة الفرقان آية ٢٠

والرسول يتعرض لما يتعرض له غيره من البشر

والرسول يتعرض لما يتعرض له غيره من الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، واللذة والألم ، والحياة والموت ، إلا أن ما ينزل به لا يعرضه لتغيير الناس منه .

« وَآيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدَنَا وَذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ » (١)

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنَّ لِلَّهِ شَيْئًا » (٢)

والرسول أى رسول لا يتصرف فى الكون ، ولا يملك النفع أو الضر ، ولا يؤثر فى إرادة الله ، ولا يعلم من الغيب إلا القدر الذى أَرَادَهُ اللهُ لَهُ .

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٣)

« عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » (٤)

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤

(١) سورة الأنبياء آية ٨٣ ، ٨٤

(٤) سورة الجن آية ٢٦ — ٢٨

(٣) سورة الأعراف آية ١٨٨

الرسول رجل :

ولا يكون الرسول إلا رجلاً ، فلم يرسل الله ملكاً ، ولا أنتى .
« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ » (١)
« قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ
السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » (٢)

الغرض من بعثة الرسل :

والغرض من بعثة الرسل هو الدعوة إلى عبادة الله وإقامة دينه :
« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ » (٣)

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » (٤)
« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (٥)

وإقامة الدين ، وعبادة الله ، تنتظم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر ، كما تنتظم الأعمال الصالحة التي تزكي النفس الإنسانية ، وتطهرها ، وتفرس
فيها الخير ، لتبلغ الكمال المادى والأدبى فى هذه الحياة ، ولتستعد لكمال أرقى ، وأبقى .
وهذه التعاليم العالية لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها بعقولهم ، وإنما يتعلمونها
بوحى الله .

(٢) سورة الإسراء آية ٩٥

(٤) سورة النحل آية ٣٦

(١) سورة الأنبياء آية ٧

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٥

(٥) سورة الشورى آية ١٣

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (١).

وبهذا لا تنهض حجة من أغفل الله قلبه عن ذكره ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً ، قال تعالى :

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسَلْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٢) » .

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٣) .

قال ابن كثير : يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل : إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى :

« وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ » (٤) .

(٢) سورة النساء آية ١٦٣ - ١٦٥

(١) سورة الجمعة آية ٢

(٤) سورة فصلت آية ١٧

(٣) سورة التوبة آية ١١٥

والله سبحانه لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة ، ويقطع عذره .
« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » (١) .

عصمة الأنبياء (٢)

الرسول اصطفاهم الله واختارهم :

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى
الْعَالَمِينَ » (٣) .

ونزههم عن السيئات ، وعصمهم من المعاصي ، صغيرها وكبيرها .

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْفُرَ » (٤) .

وحلّاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق ، والأمانة ، والتفاني في الحق ، وأداء

فمنهم الصديق : الواجب

(١) الإسراء آية ١٥ — استدلل الأشاعرة والمالكية والكمال بن المهام بهذا الآية
على أن أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة ناجون وإن عبدوا الأصنام . وذهب أبوحنيفة
والماتريدي به أنه يشترط في نجاتهم في الآخرة ألا يشركوا مع الله غيره ، لأن معرفة الله
الواحد يكفي فيها العقل ، والأول أظهر لأن الله يقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد
ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .
(٢) العصمة هي أنهم لا يتركون واجبا ، ولا يفعلون محرما ، ولا يقتربون

ما يتنافى مع الخلق الكريم

(٤) سورة أن عمران آية ١٦١

(٣) سورة آل عمران آية ٣٣

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا » (١) .

ومنهم من اصطغمه الله لنفسه :

« وَأَقَمْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » (٢) .

« فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ وَأَصْطَنَمْتُكَ

لِنَفْسِي » (٣) .

ومنهم من هو بعين الله .

« وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » (٤) .

ومنهم من اجتباه الله وعلمه :

« وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَوَالِيهِ الْأَحَادِيثِ وَيُمَتِّعُ نِعْمَتَهُ

عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ

رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » (٥) .

وبعد أن ذكر الله جملة من الأنبياء في سورة مريم قال :

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا

مَعَ نُوحٍ وَمِمَّنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ

عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » (٦) .

وهم وإن تفاوتوا في الفضل إلا أنهم بلغوا الغاية من السمو الروحي والصلة بالله .

(٢) سورة طه ٣١

(١) سورة مريم آية ٤١

(٤) الطور آية ٤٨

(٣) سورة طه آية ٤٠ ، ٤١

(٦) سورة مريم آية ٥٨

(٥) سورة يوسف آية ٦

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » (١) .

وهكذا نجد النصوص الكثيرة الواردة في القرآن بشأن الأنبياء والرسل - تضيء عليهم من الطهر والنزاهة والقداسة ما يجعل منهم النموذج الحى والصورة المثلى للكمال الإنسانى .

ومثل هؤلاء لا يمكن إلا أن يكونوا معصومين من التورط فى الإثم ، ومنزهين عن الوقوع فى المعاصى ، فلا يتركون واجباً ، ولا يفعلون محرماً ، ولا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التى تجعل منهم القدوة الحسنة ، والمثل الأعلى الذى يتجه إليه الناس ، وهم يحاولون الوصول إلى كمالهم المقدر لهم .

والله سبحانه هو الذى تولى تأديبهم وتهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم حتى كانوا كما شاخته وأهلاً للاصطفاء والاجتباء .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَمِنْهُمْ يُكْفِرُ بِهَا هُوَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ » (٢) .

« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ » (٣) .

(١) سورة البقرىة آية ٢٥٣ وقيل إن أفضلهم خاتم الانبياء محمد ، ثم إبراهيم ثم يوسف ، ثم نوح ، ثم آدم أبو البشر .

(٢) سورة الأنعام آية ٩٠ (٣) سورة الأنبياء آية ٧٢

« إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ^(٢) » .

فهذه الآيات أدلة بينة على مدى الكمال الإنساني الذي أفاضه الله على أنبيائه ورسله ، ولو لم يكونوا كذلك لسقطت هيبتهم في القلوب ، ولصغر شأنهم في أعين الناس ، وبذلك تضيع الثقة فيهم ، فلا يفقد لهم أحد ، وتذهب الحكمة من إرسالهم ليكونوا قادة الخلق إلى الحق ، بل لو فعلوا شيئاً مما يتنافى مع الكمال الإنساني بأن يتركوا واجباً ، أو يفعلوا محرماً ، أو يرتكبوا ما يتنافى مع الخلق الكريم لكانوا قدوة سيئة ، ولم يكونوا مثلاً علياً ، ومنارات هدى .

إن رسل الله يدركون بحسبهم الذي تميزوا به على غيرهم من البشر ، أنهم دائماً في حضرة القدس ، وأنهم يبصرون الله في كل شيء ، فيرون مظاهر جماله وجلاله ودلائل قدرته وعظمته ، وآثار حكيمته ورحمته . يرون ذلك في أنفسهم وفيمن حولهم : في الأرض وفي السماء وفي الليل والنهار ، وفي الحياة والموت ، فتمتلئ قلوبهم بإجلال الله ووقاراً له ، فلا يبقى فيها مكان للشيطان ، ولا موضع لهوى ، ولا جنوح لشهوة ، ولا إرادة لشيء سوى إرادة الحق والتفاني فيه والاستشهاد من أجله .

وماورد في القرآن الكريم مما يوم ظاهره بأنهم ارتكبوا ما يتنافى مع عصمتهم فهو ليس على ظاهره ، ويتجلى ذلك فيما نذكره بالنسبة لما نسب لكل نبي فيما يلي :

آدم عليه السلام

يقول الله سبحانه — :

« وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ^(٢) » .

فظاهر هذه الآية أن آدم عصى ربه ، وغوى ، بمخالفة أمر الله ، واستجابته لدعوة الشيطان ، وأن ذلك كان زلة وقع فيها .

« فَازَلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ، فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ » (١) .

ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن هذه المعصية إنما وقعت من آدم نسياناً منه لعهد الله ، ولم يصدر عنه هذا الفعل عن إرادة وقصد ، والله سبحانه لا يؤاخذ على الخطأ ولا على النسيان ؛ لأن ذلك تكليف بما لا يطاق ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، والأصل في هذه القاعدة قول الله سبحانه :

« وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » (٢) .

وقوله :

« رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » (٣) .

والدليل على أن ما وقع من آدم كان نسياناً وعن غير عمد ، قول الله سبحانه :

« وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً » (٤) .

أى أن آدم نسى عهد الله الذي وصاه به حين ارتكب ما نهاه عنه من الأكل من الشجرة ، ولم يوجد له عزم على فعل ما نهى عنه . . . وحيث لم يوجد العزم على المعصية ، فلا توجد المؤاخذة .

وإنما اعتبر القرآن ذلك النسيان عصياناً نظراً لمقام آدم الذي خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، وعلمه الأسماء كلها ،

(٢) سورة الأحزاب آية ٥

(١) سورة البقرة آية ٣٦

(٤) سورة طه آية ١١٥

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦

والذى شأنه هكذا يجب أن يكون بقللاً كأقوى ما تكون اليقظة بحيث لا ينسى وصاية الله له وعهده إليه ، فهذا : من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين

نوح عليه السلام

أما نوح عليه السلام فما وقع منه فهو أنه سأل الله عن هلاك ابنه مع من هلكوا في الطوفان ، مع وعد الله بنجاته ونجاة أهله ، فقال :

رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ .
قِيلَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَ كُنُ مِنَ الْخَامِرِينَ ، (١) .

فلم يكن لنوح عليه السلام علم بأن نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله ، فسأل الله كيف هلك مع الوعد بنجاة أهله ، وابنه من أهله ، فعلمه الله أن الصلة الدينية والنسب الروحي أقوى من صلة الدم ، فإذا انقطعت هذه الصلة ذهبت بصلة النسب والدم ، فقال له معلماً إياه : « إنه ليس من أهلك » معللاً ذلك بأن عمله عمل غير صالح ، وما دام ذلك كذلك فليس هناك صلة نسبية ، وبذلك ينتفى نسبه من أبيه ، فلا يكون من أهله الذين وعدوا بالنجاة .

وكان على نوح عليه السلام ، وهو الأب الثاني للبشر ، الذى بذل حياته لله ، رلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله ، ويجاهد في سبيله كان عليه أن

بفطن لهذا المعنى ، وأن يدركه ، فلما لم ينتبه إليه ، وغلبت عليه عاطفة الأبوة اعتبر ذلك نقصاً بالنسبة لمقامه الرفيع ، ومنزلته الكبرى التي حباه الله بها . ومن ثم فقد لجأ إلى الله أن يغفر له هذه العثرة التي لم يقصد إليها ، ولم يكن له علم بها ، فقال :
« رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . (١)

إبراهيم عليه السلام

وجاء في دعاء إبراهيم عليه السلام قوله :

« وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » (٢) .

ونحن لا نعرف لإبراهيم خطيئة ، والذي نعلمه أن الله قد اتخذته خليلاً ، وأضفى عليه من صفات الكمال ما هو خليق به .

« وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » (٣) .

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِنِعْمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » (٤) .

وطلبه من الله أن يغفر له خطيئته ليست خطيئة بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن وإنما هي ما يستشعره في نفسه من قصور في تفانيه في الله ، وأداء رسالته ، نظراً لمكاتبته السامية ، ومنزلته الرفيعة .

(٢) سورة الشعراء آية ٨٢

(١) سورة هود آية ٤٧

(٤) سورة النحل آية ١٢٠ - ١٢٢

(٣) سورة البقرة آية ١٣٠

يوسف عليه السلام

والله يقول في يوسف عليه السلام :

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ^(١) .

وليس في هذا ما يدل أدنى دلالة على أن يوسف همَّ بالفاحشة لأن المقصود بالهم هنا الهم بالضرب والأذى . . . وذلك أن امرأة العزيز راودته عن نفسه ،

ففلقت الأبواب ، ودعته إلى نفسها ، فاستعصم ، وأبى وقال :

« مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » ^(٢) .

وإزاء هذا الاستعصام والتأبى والترفع عن التسفل ، همت امرأة العزيز بضربه وإلحاق الأذى به ، بعد أن عجزت عن إغرائه بكل وسيلة ، فهمَّ هو بأن يعاملها بالمثل ، دفاعاً عن نفسه ، لولا أن رأى أن ذلك لا يليق بأمثاله من أصحاب النفوس الكبيرة ، ولا سيما أن هذا البيت آواه ، وأكرمه ، فضلاً عن أنها سيدته التي تبنته ، وأنها زوجة رجل عظيم في أمة عظيمة .

فلولا أن رأى ذلك كله ، وهو صاحب شعور نبيل وعاطفة جياشة لتقابلها بالمثل ، ولأذاها بالضرب المبرح .

ولكنه كذلك لا يرضى بالاستكانة ، ويقف ذليلاً يتلقى الضربات من امرأة أصابها جنون الشهوة الحيوانية — وهو من هو — فأثر أن يفر منها تقادياً من الخرج الذي تعرض له ، ولكنها أبت إلا أن تتابعه لتثار لنفسها منه .

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » ^(٣) .

(١) سورة يوسف آية ١٤ (٢) سورة يوسف آية ٢٣

(٣) سورة يوسف آية ٢٥

فكان في ذلك خلاصه .

والذى يدل على هذا أبلغ دلالة :

أولاً : أن الله آتاه العلم والحكمة .

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » (١)

ثانياً : أنه أجاز امرأة العزيز بعد المراودة ، بما يدل دلالة قاطعة على أن السوء

لا يخطر على قلبه .

« قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

فالذى يقول هذا لا يتصور منه الهمُّ بالفحش

ثالثاً : أن الله صرف عنه السوء والفحشاء ، وأخلصه لنفسه .

« وَكَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (٢) .

ومن كان كذلك لا يمكن أن تتوجه نفسه مجرد توجه إلى سوء أو إلى فحش ،

لا في القول ولا في العمل .

رابعاً : أن كل هم في القرآن إنما يقصد به الهم بالأذى كالضرب والقتل

« رَهْمَتْ كُلُّ أُمَّةٍ رِسُولَهُمْ لِيَكُنَّ خُذُوعًا » (٣) .

« وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » (٤) .

وهكذا لو تتبعنا جميع أسباب براءة يوسف عليه السلام من الهمِّ بالفاحشة

لوجدناها من الكثرة بحيث لا يتسع لها هذا المختصر .

(٢) سورة يوسف آية ٢٤

(١) سورة يوسف آية ٢٢

(٤) سورة التوبة آية ٧٤

(٣) سورة غافر آية ٥

موسى عليه السلام

والله سبحانه يقول في موسى عليه السلام :

« وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَنَافَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ . قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (١)

فوسى عليه السلام دخل المدينة ، فوجد فيها مصرى واسرائيلياً من قومه ، وهما يتضاربان ، إلا أن الاسرائيلى الذى هو من شيمته وقومه ضعيف غير قادر على مقاومة المصرى ، فاستغاث بموسى ؛ لينقذه منه ، فحدث كما يحدث غالباً فى مثل هذه المواقف أن ضرب موسى المصرى بيده ضربة أصابت منه مقتلاً ، ولم يقصد إلى قتله قط وإنما قصد أن يمنع عدوانه عن أخيه ، فحدث القتل الخطأ الذى لا مؤاخذه عليه إلا من حيث عدم التحرى والوعى الكامل ، ولا سيما لمن هم فى أعلى المستوى البشرى كموسى ، ونحوه من أولى العزم ، ولذلك رجع إلى ربه ذا كراً خطأه طالباً من الله العفو والغفران .

داود عليه السلام

يقول الله سبحانه فى داود عليه السلام :

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ

فَفَرَّحَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا
بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ
نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُوءِ الْإِنْسَانِ نَجَعْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ
فَاسْتَفْتَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ
وَحُسْنَ مَآبٍ « (١)

وهذه القصة ليس فيها ما يدل على أن داود عليه السلام قد عصى ربه بارتكاب
ما يتنافى العصمة .

وكل ما يمكن أن يقال في هذا .. إنه قضى بين الخصمين بعد أن سمع من أحدهما
وقبل أن يسمع من الآخر . والتمجيل بالحكم قبل الاستماع إلى الطرفين يعتبر في
نظر القضاء مخالفة ، ولا سيما إذا كان القاضى نبياً كداود عليه السلام ، ممن أوتوا
الحكمة وفصل الخطاب .

ويمكن أن يقال أيضاً إنه خاف من تسور الخصمين الحراب ودخولهما عليه بفتنة
وهو بين يدي الله . خاف أن يقتلاه كما كانت عادة بنى إسرائيل من قتلهم الأنبياء ،
فكان هذا الخوف ، وهو في الحراب ومائل بين يدي الله ، مما لا يليق بمكانته وعظيم
قدره وحسن صلته بالله ، مالك ناصية كل شيء .

وسواء أكان ما ينسب إلى داود عليه السلام من العجلة في الحكم أو من

انخوف من القتل ، فقد ظن أنه مُختَبَر بما وقع له ، فاستغفر ربه ، وخر راكعاً منيباً إلى الله راجعاً إليه .

ولا يمكن أن تتضمن القصة التي ذكرت في القرآن معنى آخر وراء ذلك مما ينتقص من قدر نبيِّ عظيم .

وما ذكر من أن المقصود بالنعجة هي المرأة ، وأن داود اغتصب زوجة أحد قواده بحيلة احتالها عليه ، فهو من الاسرائيليات المكذوبة ، ومن الدخيل الذي يتنافى مع عظمة الرسالة ، وكال ، النبوة ، وشرف الدعوة التي انتدب الله لها خيار خلقه وصفوة عباده .

سليمان عليه السلام

يقول الله سبحانه في سليمان عليه السلام

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » (١)

والابتلاء الذي تعرض له سليمان وهو المرض الشديد الذي جعل منه جسداً ملقى على الكرسي لا يستطيع معه الحركة — كان سبباً في ضعف نفسه ، وضعف مقاومته ، فتاب إلى الله من هذا الضعف الذي يعتري البشر عادة ، وكان الأجل به أن يتجمل بالصبر الجميل .

ويقال إن سليمان كان له ولد فاجر انتزع ملكه من أبيه ، فكان ذهاب ملك سليمان على يد ابنه الفاجر ابتلاء له ، ثم ردَّ الله ملكه إليه بعد أن سلب منه ، فسأل الله عقب ذلك أن يغفر له ما يمكن أن يكون حدث من تقصير في شكر الله ، وسأله أن يهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستجاب الله له .

محمد صلوات الله وسلامه عليه

وجاء في القرآن الكريم :

« فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكَ » (١)

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » (٢)
وظاهر الآية الأولى يوهم بأن للرسول ذنباً ، وأن عليه أن يستغفر الله .
وظاهر الآية الثانية يفيد بأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

والمعروف من سيرة رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه معصوم
قبل البعثة وبعدها ، فقد عصمه الله من عبث الطفولة وهو الشباب ، فلم يله كما كان
يلهو غيره ؛ لأنه أعد لحل رسالة الهدى والنور . وقد أشار إلى هذا فيما حدث به
عن نفسه فقال : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين . كل
ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله برسالته قلت ليلة
للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة ، وأسمر بها
كما يسمر الشباب فقال : أفعل ، نخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة ، سمعت
عزفا . فقلت : ما هذا ؟ . فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع ، فضرب الله
على أذني ، فنمت ، فما أيقظني إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبي ، فسألني ، فأخبرته ،
ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة ، فأصابني مثل أول ليلة . . . ثم
ما هممت بسوء » .

وكذلك كان ، صلوات الله وسلامه عليه ، مدة حياته لا يخطر السوء على قلبه ، وإذا كان ذلك كذلك فما معنى الذنب الذى أمر أن يستغفر منه ، والذى قد غفر له ما تقدم منه ، وما تأخر ؟ .

مما لا جدال فيه أن الرسول كانت تصدر عنه بعض التصرفات التى لم يوج إليه شيء مخصوصها ، بل كان أمرها متروكا إلى اجتهاده الخاص ، فكان فى بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن ، متجاوزاً ما هو أحسن منه ، فاعتبر وقوفه عند رأى الحسن ، وعدم إصابته ما هو أحسن منه ذنباً بالنسبة إليه ، وبالإضافة إلى مكانته من العلم والعقل والفقہ .

وقد ذكر القرآن أمثلة لذلك :

فمنها اجتهاده فى أسرى بدر ، وقبوله الفداء ، وقد عتب الله عليه عتياً أبكاه :
« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »^(١)

أى لولا أن كتاب الله وحكمه سبق بعدم مؤاخذه المجتهد على اجتهاده لعاقبكم بالعذاب العظيم على قبول الفداء ، وعدم الأثخان فى الأرض .

ولما نزلت هذه الآية بكى رسول الله ، وبكى معه أبو بكر بكاء شديداً ، وقال :
« لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر » .

فى هذه الحادثة لم يكن من الرسول إلا الاجتهاد فى قضية لم يوج إليه فيها شيء ،

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ - ٦٨ .

ولم يخطيء في حكمه فيها؛ لأن الرسول لا يقر على خطأ، وإنما عدل عما هو أحسن إلى ما هو حسن.

ومنها أنه قبل أعداء المتخلفين عن الفزوة دون تمحيص هذه الأعداء؛ ليتبين له من هو صادق من هو كاذب.

« عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِنَا لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمِ الْكَاذِبِينَ »^(١)

ومن ذلك عتاب الله له في إخفائه أمر زواجه زينب بنت جحش بعد طلاق متبناه زيد بن حارثة لها — وكان الله قد أمره بذلك؛ لبيطل تقليداً من تقاليد الجاهلية، إذ كانت هذه التقاليد تقضى بتحريم زواج زوجة المتبنى، مثل تحريم الزواج بزوجة الابن من النسب، فكان الرسول يجد حرجاً مثل أى إنسان عندما يتخرج من مخالفة التقاليد والخروج على العادات.

وقد رفع الله عنه الحرج بعد العتب اليسير.

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَمَا لَكَيْلًا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا »^(٢)

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ ، ٣٨

(١) سورة التوبة آية ٤٣

وما قيل غير ذلك فهو محض اختلاق .

ومما يدخل في هذا النطاق قول الله سبحانه :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْزَعَهُ اللَّهُ كِرْبَى . أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى فَانْتَ لَهْ أَصْدَى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَانْتَ عَنْهُ تَلَهَّى » (١)

فهذا عتب من الله لرسوله حين طمع في إسلام بعض صناديد قريش ، فأقبل عليهم يدعوهم إلى الله ، وهم ينصتون له ، ويقبلون عليه .

وفي هذه الأثناء حضر عبد الله بن أم مكتوم ، وأخذ يقاطع الرسول ، ويقول له : علمني مما علمك الله ، ويكرر ذلك ، فكان الرسول يضيق بهذه المقاطعة ، ويعبس من الضيق ، مع أن الرجل أعمى لا يبصر هذا العبوس ، ومع ذلك عاتبه الله فيه ، فكان كلما لقيه بعد — يقول له : أهلا بمن عاتبني فيه ربي .

ومن هذا القبيل ما روى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قرأ قول الله سبحانه :

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » (٢)

تلك الغرائيق العلا ، وإن شفاعتهن لترجي .

فهذا كذب محض وافتراء أحقر من أن يناقش ، وليس فيه صلة بين هذه

الأكذوبة وبين قول الله سبحانه :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى الْقَى الشَّيْطَانُ

فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ» (١)

فإن الآية تقرر أنه مامن نبيّ ، ولا رسول تمنى هداية قومه ، واستجابتهم
دعوته إلا جاء الشيطان واضعاً أمامه العقبات ، وميئساً له من الوصول إلى الهدف
الذي يستهدفه ، إلا أن الله سبحانه يعجلّ بآزالة ما يلقي الشيطان من وسوسة نيشه ،
ويجي في نفسه الأمل والرجاء .

هذا هو ما نسب إلى رسل الله وأنبيائه ، وهو لم يخرج عن كونه هئات هينات
لا تصل إلى درجة المعصية ، ولا تتنافى مع العصمة ، ولا تنقص من أقدارهم السامية ،
أو تنال من مكاتبتهم الرفيعة .

وبأبى اليهود والنصارى إلا أن يجرحوا كثيرا من الأنبياء والرسل ، وينسبوا
إليهم ما نزههم الله عنه ، وصانهم منه ، بل إن كتبهم ترمي بعض الأنبياء بكبائر
الإثم والفواحش .

والنصارى تغالوا في هذا ، وبالغوا فيه ؛ ليوجبوا العصمة للمسيح وحده ، وهم
يقصدون بهذا إقامة الأدلة على أن عيسى إله منزّه عن الخطايا من جهة ، وأنه جاء
ليخلص الإنسان من خطيئة أبيه آدم ، والتي ورثها عنه أبناؤه ، ويفدى البشر بنفسه
من جهة أخرى

وعقيدة الفداء هذه هي أساس ديانة النصارى ، ولكن كتبهم — مع اعتقادنا

بتحريفها — تكفي في الرد عليهم

ففيها نصوص قاطعة بأن يوحنا أفضل من المسيح وأعظم منه ، وأنه هو الذى تولى تعميده ، وأنه معصوم من كل خطيئة ، وأنه لم يشرب حمرا قط .

بينما نسب إلى المسيح أنه شرب خمر ، كما نسب إليه عدم استجابته لدعوة أمه حينما دعى إليها^(١)

ففى إنجيل لوقا (١ - ٦٥) أنه يكون عظيما أمام الرب وخمرا ومسكرا لا يشرب ، ومن بطن أمه يمتلىء بروح القدس .
وفيه (٦٦) كانت يد الرب معه .

وقال المسيح فيه (متى ١١ : ١١) الحق أقول لكم إنه لم يضم بين المولدين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان .

وقال فيه (١٨) جاء يوحنا لا يأكل ، ولا يشرب ، فيقولون : فيه شيطان وجاء ابن الانسان يأكل ويشرب فيقولون : هو ذا إنسان أ كول وشرب خمر محب للعشارين والخطاة .

أما عيسى عليه السلام فقد شهدت الأناجيل بأنه أهان أمه ، وهى التى فضلها لله على نساء العالمين .

فقد جاء فى إنجيل لوقا (٨ : ٢) فأخبروه قائلين : أمك وأخوتك واقفون خارجا يريدون أن يروك ؟ فأجاب وقال : أمى وإخوتى هم الذين يسمعون كلمة الله ، ويعملون بها

(١) ونحن ننزهه عن هذا ونعتقد أنه كان وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن

أولو العزم من الرسل

يقول الله سبحانه :

« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ ^(١) مِنْ الرُّسُلِ ^(٢) »

قيل إن أولى العزم هم كل الرسل ، وتكون من لبيان الجنس .
والمشهور من الأقوال : أنهم محمد ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم
صلوات الله وسلامه .

وقد نص الله على أسمائهم من بين الرسل في آيتين :

الأولى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ^(٣) »

الثانية : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ^(٤) »

أفضل الرسل

أفضل الرسل على الإطلاق هو سيدنا محمد خاتم النبيين

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ^(٥) »

(٢) سورة الأحقاف آية ٣٥

(٤) سورة الشورى آية ١٣

(١) العزم : الثبات والصبر .

(٣) سورة الأحزاب آية ٧

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٢

والذى رفعه الله درجات هو سيدنا محمد

وأدل دليل على هذا ما جاء في سورة آل عمران من تبشير الأنبياء به ، وأخذ العهد والميثاق عليهم بالإيمان به ونصرته إن هم أدركوا بعثته

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » (١)

وروى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى »

وأما منعه صلوات الله وسلامه عليه من التفضيل بين أنبياء الله ، وقوله :

« لا تفضلوا بين أنبياء الله »

فالقصد منه منع الغلو في تعظيمهم من جهة ، وكف المسلمين عن تنقيص أحد من

إخوانه الأنبياء من جهة أخرى .

ختم النبوة والرسالة

الأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم كانت مهمتهم أن ينقذوا الناس ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ، فكانوا دائماً دعاة للخير ، وأئمة الإصلاح وحملة المشاعل في الدنيا المظلمة . . . وكان كل واحد منهم يأتي عقب الآخر ؛ ليتم ما بناه من قبله ، فيزيد في الإصلاح لبنة حتى استكمل البناء بخاتمهم محمد صلوات الله

وسلامه عليه ، فكان دينه خلاصة الأديان السابقة ، وكانت دعوته هي الدعوة الجذيرة بالبقاء ، ففيها عناصر الحياة ودعائم الإصلاح .

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (١)

وبإكمال دين الله الحق تمت نعمة الله على الناس بما أنزله إليهم من هداية فلا حاجة إلى هداية بعدها .

وبهذا انقطعت النبوة ، وختمت الرسالة .

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » (٢)

وإذا كانت النبوة قد انقطعت ، فقد انقطعت بالتالي الرسالة ، فلا نبوة ولا رسالة بعد نبوة محمد خاتم رسل الله ، وفي ذلك يقول ، صلوات الله وسلامه عليه : « متلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا ، فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها ، فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ، فأنا موضع اللبنة . ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » .

الأعمال الكبرى التي تمثل نجاح سيدنا محمد

إن لرسولنا صلوات الله وسلامه عليه أعمالا كبرى يتمثل فيها نجاحه في دعوته ، وهذه الأعمال يمكن تلخيصها فيما يلي :

العمل الأول : أنه قضى على الوثنية ، وأحل محلها الإيمان بالله واليوم الآخر .

(٢) سورة الأحزاب آية ٤٠

(١) سورة المائدة آية ٣

العمل الثاني : أنه قضى على رذائل الجاهلية وتقائنها ، وأقام مقامها الفضائل
والمكارم والآداب .

العمل الثالث : أنه أقام الدين الحق الذى يصل بالإنسان إلى أقصى ما قدر له
من كمال .

العمل الرابع : أنه أحدث ثورة كبرى غيرت الأوضاع والعقول والقلوب
ونظام الحياة الذى درج عليه أهل الجاهلية .

العمل الخامس : أنه صلى الله عليه وسلم وحد الأمة العربية ، وأقام دولة
كبرى تحت راية القرآن .

هذه هى الأعمال التى تمثل نجاح الرسول صلى الله عليه وسلم فى مهمته . وهى
كما تبدو كلها أمور كبيرة ، وإقامتها بل إقامة واحد منها من الخطورة بمكان .
وإنه لا يمكن أن يتأتى النجاح لفرد فى بعض هذه الأعمال فضلاً عن توفر
النجاح فى كل ناحية من هذه النواحي .

إن القيام بهذه الأعمال والنجاح فيها على هذا النحو هو المعجزة الكبرى
لحضرة رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه — فإذا كان عيسى له معجزة إحياء
الموتى ، وموسى له معجزة العصا ، فإن هاتين المعجزتين فى جانب هذه الانتصارات
وبإلى جانب هذه المعجزات لا تساوى شيئاً .

دلائل صدقه :

ومن دلائل الصدق، على أن الرسول إنما هو مرسل من عند الله ما يأتى .
أولاً : أنه كان زاهداً فى الدنيا ، فلم يكن يطلب على عمله أجراً ، فقد كان زاهداً
فى المال ، وفى كل ما هو مادمى ، كما كان زاهداً فى الجاه والنصب .

أما زهده في المال فإن طبيعة حياته تدل على ذلك أبلغ دلالة ، فهو لم يفترش الحرير ، ولم يلبس الديباج ، ولم يتزين بالذهب . كان بيته كأبسط بيوت الناس ، وكان يمر عليه الشهران ، ولا يوقد في بيته نار . قال عروة وهو يسمع خالته عائشة تتحدث بهذا إليه : يا خالتي ما كان يُعَيِّشُكُمْ؟ قالت : إنما هما الأسودان التمر والماء !!
وذات مره رأى عمر بن الخطاب الرسول نائماً على حصير بالية ، وقد أثر في جسمه ، فبكى ، فقال له الرسول ما يبكيك : ؟ فقال .

ما بال كسرى وقيصر ينمان على الديباج والحرير ، وأنت رسول الله يؤثر في جنبك الحصير ، فقال صلى الله عليه وسلم يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة .

ولقد جاءت الغنائم إلى الرسول بعد انتصار المسلمين ، فرأى نساؤه أن يستمتعن بشيء من هذه الغنائم ، وطلبن منه أن يكون لهن نصيب منها ، فإذا بالآية الكريمة ترد على سؤال هؤلاء النسوة :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ، وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » (١)

فجمع الرسول نساءه ، وقال لهن : هل تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، أم تردن الدنيا وشهوآتها ؟ فاخترت كل واحدة منهن الله ورسوله والدار الآخرة فدحهن الله وأنزل في حقهن :

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ
الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا » (١)

ولقد توفي رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودي ، وقد عاش طول حياته ،
وما شيع من خبز الشعير قط .

أما زهده في الجاه فهو يتمثل في كل حال من أحواله .

أراد الصحابة أن يمتدحوه ، ويثنوا عليه ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم :
« لا تظروني كما أظرت النصارى المسيح ابن مريم » .

وجاء الوليد بن المغيرة مندوباً عن المشركين ؛ ليفاوضه ، وعرض عليه من كل
متع الحياة ، فكان جوابه أن قرأ عليه افتتاحية سورة حم فصلت .

هذا هو الزهد الذي كان طبيعة من طبائع الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن دلائل نبوته عليه السلام أنه كان أمياً ، وأقام هذه الأعمال الكبار
وهو أمي لم يقرأ ، ولم يكتب ، ولم يدخل معهداً ، ولم يتلمذ على أستاذ ، ولكنه
نجح ، وبلغ هذه المرتبة التي لم يبلغها أحد قبله ، ولا أحد بعده .

والقرآن يسجل هذه الحقيقة ليجملها أمانة صدقه ودليل أمانته ، يقول

الله سبحانه :

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى
اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (٢)

وما كان الرسول يعلم شيئاً من النبوة ، ولا ما يتصل بالذات العلية ، فخریان
هذه الأعمال على يديه إنما هو دلائل الإعجاز .

لأن المتعلمين الذين ينقطعون للعلم والبحث ليعجزون أن يصنعوا شيئاً مما فعله
الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولاريب أن هذا تأييد وتوفيق من الله تبارك وتعالى . والقرآن يقول :
« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ
الْمُبْطِلُونَ » (١) .

ولقد كان ذلك معروفاً لدى خصومه وكان يواجههم به ، ولم يستطع أحد منهم
أن يشكك في هذه الحقيقة السافرة . فيقول الله تعالى :

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ
بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ
قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٢) .

أما الناحية الثالثة فهي الصدق ، فلم يعلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه
كذب قط قبل البعثة ولا بعدها ، ولقد جاء الوحي ، فذهب إلى خديجة ، وقال لها :
لقد خشيت على نفسي ، فقالت له : كلا والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصدق

الحديث ، وتصل الرحم وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتُكسب المعدوم ، وتمين .
على نواب الدهر » .

ولقد عرض الرسول صلى الله عليه وسلم لأول عهده بالنبوة الإسلام
على أبي بكر رضى الله عنه ، فصدَّقه لأول وهلة ، وما توقف عن المسارعة إلى الإيمان
به ؛ لأنه كان يعلم صدقه وأمانته ، ودخل أعرابي عليه ، فنظر إليه ، فوجد الصدق
يحوطه ، فقال : والله ما هذا الوجه بوجه كذاب .

التبشير بظهور خاتم الرُّسل

لم تخل الكتب الإلهية المتقدمة من التبشير بظهور محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ونبوته
ففي سفر تثنية الاشتراع (التوراة) بشارة تقول : « آتى الرب من طور سيناء
وارتفع من صير إليهم ، وشع شعاعه من فاران ونقدم إلى الامام ومعه عشرة آلاف
من الأبرار ، ومن يمينه خرج كتاب التقوى » .

فالإتيان من طور سيناء يشير إلى ظهور الرب لموسى الكليم . والارتفاع من
صير يشير إلى استيلاء داود على صير . وأما فاران فهو اسم أرض الحجاز القديم
حيث ظهر محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من سلالة إسماعيل عليه السلام .
وأما التقديم إلى الامام ومعه عشرة آلاف من الأبرار فهو إشارة إلى النبي محمد
صلى الله عليه وسلم فقد دخل مكة بصحبه عشرة آلاف من أنصاره يوم فتح مكة .
ومن يمينه خرج كتاب التقوى : يشير إلى الشريعة التي خرج بها محمد
صلى الله عليه وسلم على العالم والتي لازال نورها يضيء كل ماله شأن بالدين والدنيا
من حياة عامة وخاق اجتماعي .

وفي أنجيل يوحنا : الاصحاح الرابع عشر ١٣ ، ١٥٥

« إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزيا
آخر؛ ليكث معكم إلى الأبد : روح الحق» .
وهذا مثل ما جاء في القرآن الكريم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
خاتم النبيين .

وفي انجيل يوحنا : اصحاح ١٤ - ٢٦

« أما المعزى الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء » .
وهذا مثل قوله تعالى :

« وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ »^(١) .

وفي يوحنا أيضاً اصحاح ١٦ - ١٢

« إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا أستطيعون أن تحتملوا الآن
ولكن متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من عنده
بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما يأتي »

وهذا يتفق مع قول الله سبحانه :

« وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »^(٢) .

محمد صلى الله عليه وسلم ، دعوة إبراهيم وبشرى عيسى

ولقد سجل القرآن الكريم أن محمداً رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ،
كان استجابة لدعوة إبراهيم ، كما كان بشرى بشرى عيسى عليه السلام ، ففي سورة
البقرة يحكى القرآن الكريم أن إبراهيم واسماعيل كانا يدعوان الله ، وهما يرفعان
القواعد من البيت ، فيقولان :

(٢) سورة الإسراء آية ٨١

(١) سورة النحل آية ٨٩

« رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ، الْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (١) .

وفي سورة الصف يقول الله سبحانه :

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ » (٢) .

وروى الإمام أحمد باسناد حسن عن أبي أمامة قال :

« قلت : يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى

عيسى »

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه : إن هذه الآية التي في القرآن

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » (٣) .

قال في التوراة :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ، وَمُبَشِّرًا ، وَحَرِزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي

وَرَسُولِي سَمِيتُكَ الْمُتَوَكِّلَ . لَيْسَ بَقِظٌ وَلَا غَلِيظٌ وَلَا صَخَابٌ بِالْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ

بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمَلَّةَ الْعُوجَاءَ بَأَن يَقُولُوا :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عَمِيَاءَ ، وَأَذَانًا صَمَاءَ وَقُلُوبًا غَلْفًا »

(٢) سورة الصف آية ٦

(١) سورة البقرة آية ١٢٩

(٣) سورة الأحزاب آية ٤٥

آيات الرسل

لم يرسل الله رسولا ليبلغ الناس الدين ، ويعلمهم الشريعة ، إلا وأيده بالآيات التي تقطع بأنه مرسل من عنده ، وأنه موصول بالملأ الأعلى يتلقى عنده ، ويأخذ تعاليمه منه .

وهذه الآيات التي يؤيد الله بها رسله لا بد وأن تكون فوق مقدور البشر وخارج نطاق طاقاتهم وعلومهم ومعارفهم ، كما يجب أن تكون مخالفة للسنن الخاصة بالمادة ، وخارقة للعادات المعروفة والقوانين الطبيعية المألوفة .

ولذلك سمى العلماء هذه الآيات بالمعجزات ، لأنها تعجز العقل عن تفسيرها كما

تعجز القدرة الانسانية عن الإتيان بمثالها

وعرفوا المعجزة بأنها الأمر الخارق للعادة ، الذي يجريه الله على يدي نبي مرسل ، ليقوم به الدليل القاطع على صدق نبوته .

ومن ثم كانت المعجزة ضرورية ، وإظهارها واجباً ؛ ليرتفع بها المقصود من تبليغ الرسالة ، وتقام بها حجة الله على الناس .

وهذه الآيات ممكنة في ذاتها ، والعقل لا يمنعها ، والعلم لا ينفقها ، والواقع

يؤيدها .

فقد قام رجال وادعوا أنهم رسل الله ، وتحذوا أممهم بما أظهروه من هذه

الحوارق ، ورآها الناس عيانا ، وآمن بها ألوف وألوف عبر القرون والأجيال .

بل إن العلم الحديث نفسه أثبت أن النواميس الطبيعية يمكن تخلفها عن إحداث

آثارها بنواميس أخرى أرق منها ، كما أثبت العلم أيضا أن معجزات الأنبياء

كلها صحيحة .

والناظر فيما كتبه العلماء المحدثون عن عالم الأرواح ، ومجائب استحضارها ،
وغرائب التنويم المغناطيسى ، وما إلى ذلك يدرك لا محالة أن هذه الخوارق أمور
ممكنة ، وليس شيء منها بمحال أصلاً .

والمؤمنون بالله لا يتوقفون في تصديق شيء ، متى ثبت بالدليل القاطع الذى
لا يتطرق إليه الشك ؛ لأنهم يعلمون أنه ، سبحانه ، لا يتقيد بالسنن التى وضعها
فهم يعلمون بأن الذى قدر على جعل النار محرقة قادر على سلبها خاصة الإحراق كما
فعل مع « ابراهيم » حين ألقى فى النار ، فلم يحترق .
« قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي
بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ^(١) . »

وهم يعلمون أن الذى قدر على خلق الإنسان من ذكر وأُنثى ، وخلق آدم من
تراب ، قادر على أن يخلق من السيدة مريم العذراء بدون لقاح طبيعى أو صناعى
« قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ
كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هِنَّ وَلِنَجْمِلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ
أَمْرًا مَّقْضِيًّا ^(٢) . »

« وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ^(٣) . »

وهم يؤمنون بأن الذى أعطى المرأة الولود القدرة على الأخصاب قادر على أن
يعطى العقيم هذه القدرة ، كما فعل ذلك لأم يحيى بن زكريا ، عليهما السلام

(١) سورة الأنبياء آية ٦٨ ، ٦٩ (٢) سورة مريم ٢١

(٣) سورة الأنبياء آية ٦٩

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ، فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنْ اللَّهُ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ . قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » (١) .

وهكذا يرى المؤمنون بالله أن الله خالق الكون ، ومدبر أمره ، وواضع سننه لا يتقيد بهذه السنن الظاهرة ، وأن وراء هذه السنن سننا أخرى فوق ما نعرف ، وأن الكون ليس كما يزعم السطحيون من الماديين ، ميكانيكيا يسير حسب ما يتصورون ، وأنه ليس له مدبر يدبر أمره ، وينظم شؤنه . . لا . إن الكون أكبر مما يتصوره هؤلاء وأعظم ، وما عرفوا منه إلا الأسماء التي يستون بها جهلهم ، وينفسون بها عن غرورهم .

إن الأمر كما قال القرآن الكريم :

« وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » (٢) .

جاء في كتاب « الاسلام مع الحياة » بعنوان [العلم الحديث ورد الشمس : جاء في قصص الأنبياء : أن يوشع بن نون كان في معركة مع أعداء الله ، وكادت الشمس تغرب قبل أن ينتهي القتال ، فخشى أن يعجزوه إذا امتد القتال إلى اليوم التالي ، فقال للشمس : أنت في طاعة الله ، وأنا في طاعة الله ، فأسألك أن تقفي حتى ينتقم الله من أعدائه قبل الغروب ، فاستجاب الله الدعاء ، ووقفت الشمس ، وزيد في النهار حتى تم النصر ليوشع .
وقال الله تعالى :

« فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِمِصْرِكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُل فِرْقٍ كَالطُّرْدِ الْعَظِيمِ » (١) .

قال المفسرون : - إن موسى عليه السلام ومن معه هربوا من فرعون خوف القتل ، ولما اتهبوا إلى البحر ، ولم يجدوا سبيلا إلى ركوبه أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بمصاه ، وحينما امثت ما أمر الله به تجمع الماء على الطرفين بعضه فوق بعض ، حتى صار كالجبل ، وخرج موسى وأنصاره ، وتبعهم فرعون وقومه في نفس الطريق ، فأغرقهم الله ، وكان البحر يبتسا في طريق موسى ، وماء في طريق فرعون . وكذب الكافرون كلاً من المعجزتين ، أو الحادثتين .

أولاً : لأنها خرق لقوانين الطبيعة

ثانياً : لو صحت لجاء ذكرها في غير الكتب الدينية ؛ لأنها من الأحداث العالمية العجيبة .

وقرأت في جريدة الجمهورية عدد ١٣ - ١٢ - ٥٧ - أن كتاباً في علوم الطبيعة ظهر حديثاً ، وقد أثار ضجة كبرى في الأوساط العلمية ، ولدى المؤرخين حيث أثبت بالأرقام المحسوسة واقعة انشقاق البحر ، ووقوف الشمس في كبد السماء .

أما المؤلف فهو عالم روسي من علماء الطبيعة اسمه « إيما نويل فليكوفسكي » .

درس العلوم الطبيعية في جامعة ادنبورج ، ودرس التاريخ والقانون والطب في جامعة موسكو ، ودرس علم الأحياء في برلين وفي زيورخ ، ودرس الطب النفسي في فينا ، ولقد خرج المؤلف من أمحائه التي استمرت أكثر من عشر سنوات إلى استنتاجات علمية تؤيد بدون قصد ما جاء في القرآن الكريم وسيرة الأنبياء عليهم السلام .

وقد رأيت أن أنقل للقراء مقتطفات من الكتاب كما ترجمتها ونشرتها جريدة

الجمهورية .

قالت الجريدة : يقول المؤلف : إن نيزكا هائلا مر إلى جوار الكرة الأرضية في عهد يوشع خليفة موسى عليهما السلام . ثم عادت الظاهرة إلى الوجود بعد ذلك بسبعائة عام . . وهذه الظاهرة الكونية الهائلة التي تسيرها قوى خارقة غير مرئية تفسر المعجزات التي جاء ذكرها في الكتب السماوية والتوراة والانجيل والقرآن . إن اقتراب كوكب أو نيزك كبير من الأرض يحدث ظواهر متعددة ، منها أن دوران الأرض حول نفسها يقل أو يقف حتى يخيل إلى الناس أن الشمس قد وقفت في كبد السماء ، ومنها انشقاق البحر وانفقاد أعمدة من الغمام في النهار والليل ، ولقد مر كوكب في عهد الفراعنة ، فأمطر الأرض سيلا أحمر طبع الأرض والنيل والبحر بلون الدم . وهذا يؤيد ما جاء في الآية الكريمة :

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ » (١) .

وقد تساقط هذا التراب الأحمر في جهات متفرقة من الأرض .

إن المعجزة التي تخرق كل قوانين الفلك والطبيعة لا تصنعها سوى قدرة

الخالق وحده .

لقد تمت المعجزة حين هرب موسى من اضطهاد فرعون مصر ، فتابعه فرعون بجيوشه ، ولكن انشق البحر ، فر موسى ومن معه بسلام حتى إذا أتبعهم فرعون وجنوده عاد البحر إلى سيرته الأولى ، فانطبق على المطاردين ، وابتلع الرجال والفرسان ولم ينج منهم أحد .

ويقول المؤلف : إنه في العهد الذي يقابل عهد موسى ، يقول المؤرخون الصينيون إن الشمس آنذاك لم تغرب حتى لقد حرقت الغابات ، وذاب الجليد . وهكذا البتة الأرض ساكنة كأن قوة جبارة قد صنعتها ، ولا يعرف على وجه التحديد كم استمر

وقوفها قبل أن تتابع دورانها حول نفسها مرة أخرى .

ولسكن هل تابعت الأرض دورانها في نفس الاتجاه ؟

إن الأرض الآن تدور من الغرب إلى الشرق ، فهل كانت هكذا دائماً ، اذا رجعنا في الاجابة على هذا السؤال الى الخرائط القديمة فإن الإجابة هي لا ، لأن الخرائط التي رسمها قدماء المصريين في سقف أحد المعابد تدل على أن الأرض كانت تدور قبل وقوفها من الشرق الى الغرب ، وهذا ما أكده أفلاطون في حوارهِ عن السياسة حيث قال :

إن الشمس من قبل كانت تغيب حيث نراها تشرق ، وهذا يفسر الآية الكريمة « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » (١) .

الفرق بين آيات الرسل وغيرها من الخوارق

ولا تلتبس معجزات الرسل وآيات الأنبياء بما يحدث على يد غيرهم من خوارق العادات ، فإن المعجزات تأتي مصحوبة بالتحدي ، وتصدر عن رجال عرفوا بالتقوى والصلاح ، وأنهم بلغوا منهما الذروة التي لا يتناول إليها أى إنسان .

وتأتى المعجزات بدون كسب لأحد من البشر ، فالله هو الذى يدمم بها مباشرة لأنها كما قلنا ليست فى مقدورهم ولا مقدور غيرهم من الناس ، وإنما هى آية من الله وحده ، ومعجزة لنبيه يتحدى بها معارضيه ..

وأما ما يظهر على يد غير الرسل من خوارق العادات فهو كما قال الشيخ رشيد رضا : منقول عن جميع الأمم فى جميع العصور ، نقلاً متواتراً فى جنسه دون أنواعه وليست كلها حقيقية .

فإن منها ما له أسباب مجهولة للجمهور ، وإن منها ما هى صناعات يستفاد بتعليم

خاص ، وإن منها لمن خصائص قوى النفس في توجيهها إلى مطالبها ، وفي تأثير أقبواء الإرادة في ضعفائها .

ويدخل في هذين الأمرين المكاشفة في بعض الأمور ، والتنويم المغناطيسى ، وشفاء بعض المرضى ، ولاسيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ثم يقول :

ومنها انخداع البصر بالتخييل الذى يحذقه المشعوذون ، ومنه ما فعله سحره فرعون المعنى بقوله تعالى :

« فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُحْيِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » (١) .

ومنه انخداع السمع كالذى يفعله الذين يدعون استخدام الجن إذ يتكلمون ليلاً بأصوات غريبة عن أصواتهم المعتادة ، فيظن مصدقهم ، أن ذلك صوت الجن ، وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يجر كواشفاهم ، فلا ينبغي أن يوثق بشئ من أخبارهم . . الخ .

فأين هذا من معجزات الأنبياء وآيات الرسل .

أين هذا من انشقاق البحر لموسى ، وإحياء الموتى لعيسى ، وإخراج الناقة من الصخرة لصالح ، ونبع الماء من أصابع محمد صلوات الله وسلامه عليه .

الفرق بين المعجزة والكرامة

والكرامة هي ما يكرم الله به أوليائه بما يظهره على أيديهم ، وليس من شرطها أن تكون خارقة للعادة ، ولا خارجة عن مألوف الناس .

ومن الكرامة الاستقامة ، والتوفيق إلى طاعة الله ، والزيادة في العلم والعمل وهداية الخلق إلى الحق .

وقد يحدث بعض الخوارق للعادات على أيدي بعض الصالحين في بعض الأحوال ، فيمد ذلك من الكرامات التي تلازم بعض المخلصين لله والمتفرغين لعبادته ، والذين سلمت فطرتهم وزكّت نفوسهم ، كما وقع للسيدة مريم ، وقد حكى القرآن الكريم عنها أنه :

« كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا . قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (١) .

ولكن مع ذلك لا يتحدى بها ، بل الأصل فيها الإخفاء والكتان ، قال الشيخ أحمد الرفاعي : إن الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض ، وهذا يخالف المعجزة ، لأن إظهارها واجب ليعلم بها تبليغ الرسالة .

معجزة خاتم الأنبياء :

ما بعث الله رسولا إلا وقد أيده الله بالآيات الكونية والمعجزات المخالفة للسنن المعروفة للناس ، والخارجة عن مقدور البشر ، ليكون إظهارها على يديه مع بشرية دليلا على أنه مرسل من عند الله .

فعدم حرق النار لإبراهيم ، وناقاة صالح ، وعصا موسى ، وما ظهر على يدي عيسى (٢) من العجائب ، كلها من هذا القبيل .

(١) سورة آل عمران آية ٣٧

(٢) كان السحر مشتهرا في عهد موسى ، وكان الطب وإنكار الروح في عهد عيسى ، وكانت البلاغة في عهد محمد ، فكانت معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر على عهده ، مع ملاحظة أن المعجزة فوق مقدور البشر ، فهي أعلى مستوى وأرفع قدراً .

وكانت الآيات حسية يوم أن كان العقل الإنسانى فى الطور الذى لم يبلغ فيه الرشد بعد ، ويوم أن كانت هذه العجائب تبلغ من نفسية الجماهير مبلغاً لا تملك معه إلا الإذعان والتسليم .

فلما بدأ النوع الإنسانى يدخل فى سن الرشد، وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور والنماء ، لم تعد تلك العجائب هى الأدلة الوحيدة على صدق الرسالة . ولم يعد من السهل على العقل أن يذعن لمجرد شىء رآه خارجاً عن عرف الحياة . إنه يريد شيئاً جديداً يتناسب والطور الذى وصل إليه . يريد الإيمان الذى لا تحالطه الشكوك ، واليقين الذى يبدد ظلام الشبهات .

وما كان الله ليمد النوع الإنسانى فى طفولته بما يحفظ به حياته الروحية ، ثم يدعه بعد أن أخذ سبيله إلى النظر العقلى ، والاستقلال الفكرى دون أن يقيم له من الأدلة ما يتناسب والارتقاء الذى انتهى إليه ، فكان أن بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأيده بالمعجزة العلمية ، والحجة العقلية ، وهو القرآن الكريم .

« قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » (١) .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . وهذا القرآن ليس من تأليف أحد ، إنما هو وحى الله أنزله على أكمل صورة من صور الوحى .

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ
أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ إِلَيْهِ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ » (١) .
فآلية تقرر أنواع الوحي الثلاثة :

(١) « وحياً » أى إلقاء المعنى فى القلب المعبر عنه بالنفث فى الروع

وفى الحديث :

« إن روح القدس نفث فى رُوعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا
الله وأجلوا فى الطلب » .

(ب) الكلام من وراء حجاب ، وهو أن يسمع الموحى إليه كلام الله ، من حيث
لا يراه ، كما سمع موسى عليه الصلاة والسلام النداء من وراء الشجرة .

« قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ
مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي
الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (٢) .

(ج) ما يليق به ملك الوحي المرسل من الله إلى رسوله، فيراه متمثلاً بصورة رجل
أو غير متمثل .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها ، أن الحارث بن هشام ، سأل رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال أحياناً يأتينى
مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فيفصم عنى ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً
يتمثل لى الملك رجلاً ، فيكلمنى فأعنى ما يقول :

قالت عائشة رضی الله عنها : ولقد رأيتہ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليَتَفَصَّدُ عَرَقًا .

وأكل هذه الأنواع هو إرسال الرسول بالوحي .

وهذه الصورة هي التي نزل بها القرآن الكريم ، فقد نزل بواسطة جبريل عليه السلام .

« وَإِنَّهُ لَنَزْلِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » (١) .
« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » (٢) .

جاء هذا الوحي ثورة على الباطل في كل صورته ، وعلى الفساد في جميع مظاهره ، فنار على الخرافات التي لوثت العقول ، وعلى الانحراف الذي شوّه الفطر ، كما نار على العرف الفاسد الذي عطل حرية الفكر واستقلال الإرادة .

نار على هذا كله ثورة عاتية دمرت كل معالم الشر ، ومحت كل لون من ألوان الفساد واستبدل بها الحقائق التي تهدي العقل ، وتنير الضمير ، وتسمو بالنفس ؛ لتصل إلى أقصى ما قدر لها من الكمال الإنساني .

واستهدف تهذيب الفرد ، وتعاون الجماعة ، وإيجاد حكم أساسه الشورى ، وغايته حراسة دين الله وسياسة دنيا الناس ، والدعوة إلى هداية هذا الدين لتعم الأخوة الإنسانية ، مما يجعل بسلام عام يعيش الناس في ظله آمنين .

ولم تكن هذه الثورة تستهدف مصالحة ذاتية ، ولا منفعة وطنية ، ولا ترجيح

(٢) سورة البقرة آية ٩٧

(١) سورة الشعراء آية ١٩٢ - ١٩٥

كفة جماعة حاكمة على كفة جماعة أخرى ، ولا إيثار مذهب على مذهب ، وإنما كانت لخير العالم كله ومصالحة الناس جميعاً .

جاء هذا الوحي ليحل المشكلات التي أعصت الناس قديماً وحديثاً .
وليوجب على كل سؤال من هذه الأسئلة :

- ١ — ما هو الدين وما مبادئه ؟
- ٢ — من هو الله ؟ وما صفاته ؟
- ٣ — ما هي الرسالة ؟ ومن هم الرسل ؟ وما وظائفهم ؟
- ٤ — ما ماهية الحياة بعد الموت ؟
- ٥ — ما هو الخير ؟ وما هو الشر ؟ وما كيفية الجزاء عليهما ؟
- ٦ — لماذا خلق الإنسان ؟ وما مركزه في الكون ؟
- ٧ — ما علاقة الإنسان بغيره ؟ وما علاقة الأمم والشعوب بعضها ببعض ؟
- ٨ — ما علاقة الرجل بالمرأة ؟
- ٩ — ما هي الثروة ؟ وما مصدرها ؟ وما هي كيفية توزيعها ؟
- ١٠ — ما هي الحياة الطيبة ؟ وما السبيل إليها ؟

وهكذا يمضى القرآن يضع أمام العقل الإنساني مئات المسائل التي لا يستغنى عنها في دور العلم والفلسفة ، والتي تعجز جميع العقول الإنسانية عن الإحاطة بعشر معشارها ، فضلاً عن الإحاطة بها كلها ، والتي يحتاج إليها في قطع مرحلة هذه الحياة لتسكون أعلاماً هادية ، تجنبه الضلال في شئون الدين والانحراف في تقلبات الدنيا

« وَكَلَّوْنَا مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامًا وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ » (١)

كل هذه المسائل جاءت في أسلوب بلاغى رائع يملك على المرء حسه ويستولى على مشاعره ، ويوقظ حواس الخير فيه ، مع بدمه عن الاختلاف ، وسلامته من التناقض .

« وَآلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » (١) .

إنه لم يعرف لكتاب من الكتب مثل ما لهذا القرآن ، من سمو الموضوع ، وسحرانيان ، وقوة التأثير مما وجه عناية العلماء إلى الاهتمام بدراسته من حيث ألفاظه ، ومعانيه وعقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، وتشريعاته . نخلقوا بهذه الدراسة ثروة ضخمة من العلم والأدب ، لاتزال وان تزال المادة الصالحة لقيام حضارة إنسانية ينعم فيها البشر بحياة أفضل وعيش أرغد .

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » (٢) .

هذه هي المعجزة التي أيد الله بها نبيه الأُمِّيَّ ، والتي غير بها نفوساً ، وأحيا قلوباً وأنار بصائر ، وربى أمة ، وكون دولة ، في سِنِيَّ تعد على الأصابع .

إذا كان قلب العصا حية معجزة فإن تغيير العقول والقلوب أبلغ في الإعجاز . وإذا كان إحياء الميت من الخوارق التي أيد الله بها بعض أنبيائه فإن إحياء أمة أممية من الجهل والذليلة ، وجعلها مصدر إشعاع وهداية ، هو الخارق الذي تتضاءل في جوانبه جميع المعجزات .

الله أكبر إن دين محمد
وكتابه أقوى وأقوم قبلا
لاتذكر الكتب السوالف عنده
طلع الصباح فاطفاً القنديلا

(٢) سورة الشورى آية ٥٢

(١) سورة النساء آية ٨٢

•• الرّوح

- الإنسان جسد وروح
- العلم الحديث والمباحث الروحية
- حدود الروح
- الروح والنفس
- الروح بعد مفارقتها الجسد
- السؤال في القبر
- مستقر الأرواح

الإنسان مركب من جسد وروح

فبالجسد يتحرك ويحس .

وبالروح يدرك ، ويعي ، ويفكر ، ويعلم ، ويريد، ويختار ، ويحب ، ويكره
وأصل الجسد التراب ، وهذه قضية مسلم بها ، فإن الإنسان لا يكاد يموت حتى
ينتحل الى عناصره الأولى التي لا تختلف عن باقى عناصر الأرض .

فلو أخذ الإنسان جزءاً من تراب الأرض الخصبه ، وحللها تحليلاً كيميائياً ولو جدها
تتركب من عدة عناصر، ولو أخذ قطعة من جسم الإنسان وأجرى عليها عمليات التحليل
لموجدها تتركب من هذه العناصر نفسها

وقد أحصى العلماء العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان .

وقالوا : ان به من الكربون ما يكفي لعمل ٩ آلاف قلم رصاص ، وبه من
الفسفور ما يكفي لعمل ٢٠٠٠ رأس عود كبريت ، وفي الإنسان حديد ، وجير ،
وبوتاسيوم ، وملح ، ومغنسيوم وسكر ، وكبريت، وهي كلها من المعادن التي تتألف
منها تربة الأرض .

أما الروح فإن أمرها كان وما زال مشار جدل ونقاش بين العلماء والفلاسفة ،
ولم ينتهوا في شأنها الى رأى حاسم بعد !

أما القرآن ؛ فقد أجاب عن التساؤل الذى ثار حولها إجابة تعد معجزة من
معجزاته الكثيرة :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ
الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » (١)

فالروح من أمر الله الذي لا يعلمه غيره ، ولم يطلع عليه أحداً سواه ، ولم يُعط الإنسان الوسائل التي توصله الى هذا اللون من العلم والإحاطة به ، فعلم الإنسان قليل ومحدود ، وهو لم يدرك حقيقة المادة ، ولا الكون المحسوس المحيط به ، فكيف يتطلع إلى إدراك سر من أسرار الله ، وغيب من غيوبه ؟

ان كل ما يمكن أن نعرفه عن الروح هو أنها تحل في الجسم ، فتدب فيه الحياة ويظهر فيه الإدراك ، والوعي ، والتفكير ، والعلم ، والإرادة ، والاختيار ، والحب ، والبغض ، وأنها تفارق الجسم ، فيتحول الى مادة هامة جامدة كسائر المواد .

ومن ثم فقد كانت الروح هي الميزة للإنسان عن غيره في هذا العالم ، وبها صار عالما وحده ، وبالروح أسجد الله للإنسان ملائكته ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ، وجعله سيد هذا الكون ، وخليفته في الأرض .

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » (١) .

وقد عرفها العلماء من المسلمين : بأنها ذات مجردة عن المادة ، وأنها جسم نوراني علوي حى ، يفاير هذا الجسم المادى ، ويسرى فيه سرىان الماء في العود الأخضر ، لا يقبل التحلل ولا الانقسام ، يفيض على الجسم الحياة وتوابعها ، مادام الجسم صالحا لقبول الفيض .

العلم الحديث والمباحث الروحية :

وجود الروح متفق عليه في الأديان السماوية كلها .

وظل الملايين من البشر يعتقدونه ، ويؤمنون به منذ عرفوا هذه الأديان . حتى

كان المذهب المادى الذى انتشر فى القرون الثلاثة الأخيرة . فأخذ ينكر هذه الثنائية بقوة ، ويعلم أنه ليس هناك عالم سوى هذا العالم المنظور ، وأنه ليس شىء سوى المادة ، وأنه لا مكان للروح فى هذا الوجود .

ولقد تأثر كثير من الناس بهذا المذهب ، ووجد له معاصرون وأنصار فى كل مكان ، حتى كاد يطمس على كل معتقد دينى ، ويطغى على كل ماعرفه الناس من التعاليم الإلهية ، وجرف معه العلوم الطبيعية فى هذا الاتجاه . إلا أن الله سبحانه قيض من العلماء من يتدارك هذا الأمر ، ويقم الأدلة العلمية على وجود عالم روحانى وراء هذا العالم المنظور بما لا يدع مجالاً للشك ، ولا موضعاً للارتياب ، فتأسست جمعيات لدراسة المباحث الروحية . وقد ثبت لها من الحقائق ما لم يكن يخاطر على بال ، ونحن نذكر ما كتبه العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى « رحمه الله » فى ذلك قال :

فى تاريخ تأسيس جمعية المباحث الروحية فى إنجلترا سنة ١٨٨٢ :

جاء فى كتاب الشخصية الإنسانية . للعلامة الأستاذ (هـ . و . ميرس) .

مدرس البسيكولوجيا فى جامعة كمبردج ما يأتى : —

« حوالى سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادى قد أوغل فى البلاد حتى وصل إلينا ، وبلغ أوج سطوته على العقول .

اجتمع ثلة من الزملاء فى كمبردج ، وأجمعوا رأياً على أن هذه المسائل العويصة المتنازع فيها . « يريد المباحث الروحية » تستحق التفاتاً ، وجهداً جدياً أكثر مما عولجت بهما إلى ذلك الحين ، وكفت أرى أنا أن محاولة جديرة بهذا الاسم لتعمل إلى ذلك الوقت للبت فى : هل نحن أهل ، أو غير أهل للامام بشىء يتعلق بالعالم غير المرئى؟ وكنت مقتنعاً بأنه لو أمكن معرفة شىء من ذلك العالم على أسلوب (١٥ — العقيدة)

يمكن العلم أن يقبله ، ويحفظه ، فلا يكون ذلك بالتنقيب في الأساطير القديمة ، ولا بوسيلة التأمل فيما بعد الطبيعة ، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتطبيقنا على الظواهر التي تحدث فينا أساليب المباحث المضبوطة نفسها فإنها منزهة عن الهوى ، ومتروى فيها ، أقصد بها تلك الأساليب التي نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرئي المحسوس .

فالمباحث التي يجب علينا عملها ولا يمكن أن تقتصر على تحليل ساذج للأسانيد التاريخية ، أو التي صدرت عن هذا الوحي ، أو ذاك مما حدث في الزمان الماضي ، ولكن يجب أن تؤسس قبل كل شيء - ككل بحث علمي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة - على تجارب يمكننا تكرارها اليوم ، مؤملين أن نزيد عليها غداً ، فلا يمكن أن تكون إلا مباحث مؤسسة على هذه القضية . وهي ! « إذا كان يوجد عالم روحاني . وكان هذا العالم الروحاني موجوداً في أي عهد كان . وكان قابلاً لأن يظهر ويستكشف ، فيجب أن يكون كذلك في أيامنا هذه »

« فن هذه الوجهة ، وبالجرى على هذه الاعتبارات العامة ، واجهت الجمعية التي أنا عضوفيها هذه المسألة » .

ثم أخذ الأستاذ « ميرس » يسرد التجارب التي عملها ، وعملها غيره مما لاسبيل إلى نشره هنا ثم قال : ماهي الأدلة التي تحملني على الاعتقاد بأن كل هذا ليس بصحيح ؟ هذا سؤال يجب أن يضعه كل إنسان نصب عينه ، إذ التوصل إلى التَحَقُّق بغير طريق التأمل من الجهل المطلق الذي هو عليه بماهية الوجود الحقيقية .

« إنى أعتز في كل حال بأن معارفنا فيما هو مرجح أو غير مرجح في الوجود لم تظهر لي كافية لرفض مشاهدات يظهر لي بحق أنها حَقِيقية ، وأنها مع ذلك ليست

مناقضة لمشاهدات وأصول عامة أكثر منها تأسيساً، ومهما كان مجال المشاهدات العلمية واسعاً فإنه حتى باعتراف ممثلي العلم الرسمي - ليس إلا نظرة عَجَلَى في العالم المجهول، وغير المتناهي للفوايميس الطبيعية « ١٥ .

هذا هو تاريخ تكوّن جمعية المباحث الروحية بلوندره سنة ١٨٨٢ . من أقطاب العلم في إنجلترا، ولا تزال باقية للآن .

وقد جمعت من التجارب الروحية ما وقع في نحو أربعة وخمسين مجلداً . وهو ذخري علمي لم يوجد له مثيل قط في أي عهد من عهود العقليّة الإنسانيّة ، فإذا أراد قراءنا أن يدركوا مقام هذه الجمعية في نظر رجال العلم ، فليقرأوا ما كتبه عنها الأستاذ الكبير وليم^(١) نجس في كتابه إرادة الاعتقاد .

قال في الصفحة ٣١٣ :

« إن جمعية المباحث الروحية التي يمتد عملها في إنجلترا وأمريكا قد سمحت بأن يتلاقى العالمان : العلمي والروحاني في مجال واحد ، وإنّي أعتبر أن هذه الجمعية مهما كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير في ترتيب المعارف الإنسانية ، فلماذا أستحسن أن أفضي إلى القارىء بنتائج أعمالها بإيجاز ، فأقول :

« إذا صدقنا الجرائد . وأوهام الصالونات - خيل إلينا أن الضعف العقلي وسرعة التصديق هما الرابطة المعنوية الجامع بين أعضاء هذه الجمعية ، وأن حب

(١) وهو مدرس علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة . ويعتبر بلا منازع أعظم علماء النفس في القرن التاسع عشر، وأن تلميذه وايم مكدوجل أستاذ علم النفس بجامعة ديوك - يعتبر عمدة في علم النفس الاجتماعي - وهو من أعظم علماء النفس في القرن العشرين !

العجائب هو الأصل المحرك لها، والواقع أنه يكفي أن نلقى نظرة واحدة على أعضائها لدحض هذه التهمة، فإن رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ « سدجوبك » المعروف بأنه أشد الناس شكيمة في النقد، وأعصام قياداً في الشك بجميع البلاد الإنجليزية. ووكيالاها « انستراثر بلفور. » « والأستاذ.. ج. - ب لنجلى » سكرتير المجمع العلمى. ويمكن التنويه. من أعضائها العاملين « بالأستاذ.. ريشيه الفيزيولوجى » الفرنسى الخطير، وتشمل فائة أعضائها رجالا آخرين كفايتهم العلمية أشهر من نار على علم، فإذا طلب إلى أن أعين جريدة علمية تكون مصادر أغلاطها منقاة بأدق أساليب التحجيص. فإنى أنوه بمحاضر جمعية المباحث الروحية، فإن الفصول الفيزيولوجية التى تنشرها الجرائد الخاصة بهذا العلم لا تبلغ فى دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة، حتى أن صرامة الأساليب الكشافة التى طبقت منذ عدة سنين على شهادات بعض الوسطاء كانت بحيث توجد اختلاف الآراء فى باطن الجمعية نفسها^(١) - « اه

وقبل أن تتألف هذه الجمعية حمل رأى العام المجمع العلمى الإنجليزى على تأليف لجنة لفحص الظواهر الروحية، وتمحيصها، فندبت ثلاثا وثلاثين علماً من أعلامها للقيام بهذه المهمة العلمية، فبدلوا فى تحقيق هذا الموضوع ثمانية عشر شهراً، ثم حرروا تقريراً إجماعياً وقع فى ٥١٤ صفحة، وطبع فى أكثر اللغات الحية، جاء فى آخره مانصه:

(١) ولا تزال هذه الجمعية قائمة الآن فى انجلترا وأمريكا وهى تقبل فى عضويتها المؤمنين بوجود الأرواح والمناهضين لهذه الفكرة، وكل ما تشترطه هو الاهتمام بالروح كظاهرة طبيعية.

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها في البيوت الخاصة بالأعضاء لأجل نفي كل احتمال في إعداد آلات لإحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أى نوع كانت .

« وقد تباحثت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة ، أو الذين يأخذون أجراً على عملهم هذا ، لأن واسطتها كان أحد أعضاء اللجنة . وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية . وحاصل على صفة النزاهة المطلقة . وليس له من غرض مالى يرمى إليه . ولا أية مصلحة في غش اللجنة » .

« كل تجربة من التجارب التي عملناها بما أمكن لمجموع عقولنا أن نتخيله من التحولات . عملت بصر وأناة وقد دُبِّرَت هذه التجارب في أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لأجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا ، وإبعاد كل احتمال لتزوير ، أو توهم » .

« وقد اكتفت اللجنة في تقريرها بذكر المشاهدات التي كانت مدركة بالحواس ، وحقيقتها مستندة إلى الدليل القاطع » ...

« وقد بدأ نحو أربعة أخماس أعضاء اللجنة تجاربهم ، وهم في أشد درجات الإنكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد الاقتناع بأنها كانت إما نتيجة التدليس ، أو التوهم ، أو أنها تحدث بحركة غير اعتيادية للمضلات ، ولم يتنازل هؤلاء الأعضاء المنكرون للغاية عن افتراضاتهم هذه إلا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لا تمكن مقاومته في شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة .

وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة ، اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات

التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لا غبار عليها... الخ» .

هذا ما ورد في ذيل ذلك التقرير الضخم . ولسنا في حاجة لأن نقول : « إن هذا أكبر حدث سجل في تاريخ العلم .

ومن العبث الحض أن يتوهم متوهم أن الحقيقة تضع ، أو أن التبدليس يروج بين يدي ثلاثة وثلاثين رجلا من أعلام العلم المتمرسين على النظر والتمحيص ، وتمييز الغث من السمين في كل ضروب البحوث البشرية .

ولقد كان لهذا التقرير أثر عالى عام ، فهبَّ ألاف من العلماء والفهماء في جميع ممالك الأرض لبحث هذه الخوارق ، وألقوا لها مئات من الجمعيات . ونشروا مثلها من المجلات ، ووضعوا فيها ألوفاً من الكتب . ولا تزال هذه المؤسسات قائمة إلى اليوم . والاهتمام بها يزداد على نسبة كثرة ما يعمل فيها من التجارب والبحوث . وقد أقيمت لها خمس مؤتمرات عالمية في لوندرة ، وباريس . وغيرها . أصدرت تقارير ضافية ترجمت إلى اللغات الحية » .

ثم يمد أن ذكر شهادة كثير من العلماء على صحة وجود عالم وراء هذا العالم . قال :

« يرى قراؤنا مما قدمناه أن العلماء المنصرفين لدراسة الكون والكونيات . قد ظهر لهم عقب حدوث اكتشافات خطيرة لم تكن تخنط لهم ببال ، أن حدود العلم لا تزال بعيدة عنهم .

وأن كل ما حصلوه منه لا يعدو العلاقات الموجودة بين بعض ما يقع حسهم من الموجودات .

أما كنه تلك الموجودات ، وحقيقة النواميس التي تدبرها ، فلا يزال أمرها

مجهولاً ، وقد تجلى لهم أن من الحماقة وضع حد للممكنات ، والتكذيب بما لم يحيطوا بعلمه من الجهولات ؛ ثم يرى قراؤنا أيضاً أن طائفة من أمثال هؤلاء العلماء قد وُقِّعُوا منذ تسعين سنة عقب ظهور حوادث محققة تدل على وجود عالم وراء العالم المحسوس ، إلى التنقيب عن حقيقة ذلك العالم . جارين على أسلوبهم العلمى من المشاهدة والتجربة ، فوقفوا على أمور لم يكن يدور في خلد أحد أن أقطاب العلم المادى يعودون ، فيثبتون وجودها ، وقد سبق لهم نفيها ، والتشجيع على القائلين بها من الشئون الروحانية .

ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحي بالاستناد إلى اكتشافات هؤلاء العلماء فى عالم ما وراء الطبيعة ، فقد أثبتنا وجوده بالحس من الفرائز التى طبعت عليها الحيوانات . ومن حوادث العبقريات ، ولكننا نستأنس بها فى بحثنا هذا ، استِدْلالاً على أن الإنسانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات ، وبدأت تدخل إلى عهد من الحياة تتفق فيها فتوحات الروح من طريق النبوة . وفتوحات العقل من طريق العلم ، فتستقيم على الجادة التى توصلها إلى كمالها المرجوها خالصة من الشبهات الرائنة على الصدور ، والشكوك الحيرة للعقول ، اهـ

إلى هنا كانت مرحلة العلم بالناحية الروحية إلى أواخر العقد الثانى من القرن العشرين . حتى إذا استنارت هذه المباحث عقل « وليم مكندوجل » . ورأى أن ندرة تلك الظواهر الروحية التى أشرنا إليها سابقاً والتي اعتمد عليها العلماء السابقين فى تقريرهم . وهى الظواهر التى تعتمد على الوساطة الروحية . وهى نادرة الوجود بين الأفراد ، مما يجعل من المستحيل لتلك التجارب أن تتكرر بالانتظام العلمى المطلوب فى إثبات الظواهر الكونية ، والقوانين الطبيعية .

فطلب « مكدوجل » من صديقه الدكتور « راين » وكان أستاذا للنبات وعضوا في جمعية المباحث الروحية التي سبقت الإشارة إليها ، أن ينتظم في بحث علمي تجريبي يخضع نكل الاشتراطات العلمية من القابلية للتكرار ، والتحكم العلمي الدقيق . وأن يقوم « مكدوجل » بإنشاء معامل تخصص لهذا النوع من البحث فقط ، وفعلا أنشئت معامل الباراسيكولوجي « ماوراء علم النفس بجامعة ديوك » بولاية كارولينا الشمالية بالولايات المتحدة . الأمريكية ، ودخل فيها « راين » . وصحبته زوجته . وكانت هي الأخرى أستاذة لعلم النبات ، وبدأوا في أوائل العقد الثالث يوالون أبحاثهم التجريبية في معامل تجريبية أدخلت إليها . وفيها جميع أساليب الضبط ، والتحكم العلمي الدقيق لدرجة أن القيود العلمية التجريبية التي أدخلت على بعض هذه التجارب كانت أكثر من أي قيود فرضت على أي تجربة علمية سابقة ؟

وقد كان من نتيجة هذه الأبحاث التجريبية الوصول إلى النتائج الآتية :

١ - درس راين ومعاونوه الظواهر الروحية الخارقة ، وبدأ بظاهرة انتقال الفكر « التلبّي » وأثبتوا وجودها علمياً .

٢ - درسوا ظاهرة الاستشفاف ، أو الجلاء البصرى . وهي الإحساس بالحوادث التي تحدث على مسافات بعيدة ، وأثبتوا وجودها .

٣ - أثبتوا ، أن انتقال الفكر ، والجلاء البصرى مظهران لظاهرة واحدة أطلقوا عليها اسم : « الإدراك خارج الحواس »

٤ - أثبتوا ، أن ظاهرة الإدراك خارج الحواس لا تخضع للعلاقة المكانية ،

والزمانية التي تخضع لها جميع الظواهر المادية . وظواهر الطاقة سواء أكانت كهربائية أو حرارية أو ضوئية أو غيرها ، بمعنى طاقة الجاذبية ، أو طاقة الضوء تخضع لقانون التربيع العكسي أى أن شدة الجاذبية أو شدة الإضاءة ، تتناقص بنسبة تتناسب مع مربع البعد عن مصدر الضوء ، أى أن قوة إضاءة الشمعة إذا أبعِدَت عن الرأى الذى يراها على بعد متر إذا أبعِدَت إلى مترين ، أى ضعف للمسافة نزلت قوة الإضاءة إلى الربع . أى عكس مربع ٢ وهو ٤ فتصير $\frac{1}{4}$.

هذا من ناحية العلاقة المكانية التي تخضع لها كل أنواع الطاقة

كذلك العلاقة الزمانية التي يعبّر عنها فى العلوم الطبيعية بقانون (السببية) أو العلة والمعلول ، أى أن السبب يسبق النتيجة دائماً ، ولكن هذا القانون انكسر فى تجارب الإدراك خارج الحواس ، بمعنى أنه يحدث تنبؤ ، فيحدث الإدراك العقلى للحادثة « وهى نتيجة » قبل أن تحدث الحادثة فى الكون وهى المؤثر أو السبب

٥ — أثبت هؤلاء الباحثون أن العقل الذى يتأثر بالقانون العام المعروف فى علم النفس . وهو قانون المؤثر والاستجابة له ، أو الرد عليه ، كذلك العقل يستطيع أن يحس ، أو يتأثر بالمادة عن طريق الإدراك الخارج عن الحواس ، وكذلك فيؤثر فى المادة بالطاقة ، التى سموها الطاقة النفسية المحركة ، أى أن العقل يؤثر فى المادة دون اتصال مادى مباشر .

٦ — فإذا كان هناك إدراك خارج عن الحواس ، وطاقة نفسية محرّكة ، فهذا دليل على أن للشخصية الإنسانية شقا لا يخضع للقوانين الطبيعية المعروفة فى علم الفيزياء ، والكيمياء ، أى أنه شق روحى .

ومن شاء الاستزادة من هذه الأبحاث فليرجع إلى كتاب « العقل وسطوته » ،

تأليف . ج . ب . راين وترجمة الدكتور محمد الحلوجي . ففيه بحوث مستفيضة عن هذه الفاحية . كما أن به أن هذه البحوث التجريبية قد عرضت على مؤتمرين لكل علماء الولايات المتحدة في الرياضة الاحصائية وفي علم النفس ، وأخذت إقرارهم جميعاً عليها ، وبذلك فقد أصبحت الآن في موقف علمي فوق النقد ، أو الجدل .

حدوث الروح

والروح حادثة ، وليست بقديمة بإجماع المسلمين ، ويظهر أنها تحدث بعد تسوية الجسم ، وتتصل به ، وتحل فيه وهو جنين !
فمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال :

« حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يُجمَعُ خلقه في بطن أمه أربعين يوماً . ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك . ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك . ثم يرسل الله تعالى الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه . وأجله . وعمله . وشقى ، أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها (١) . »

الروح والنفس

والروح والنفس معناهما واحد ، يقول الله سبحانه وتعالى :

« اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا . فَيُمْسِكُ
الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ . وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » (١) .
ويقول سبحانه :

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ » (٢) .

فالأنفس في الآيتين المقصود بها الأرواح .
وقد ذكر القرآن النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة
وليست هذه بأقسام للنفس ، وإنما هي صفات :
فالنفس في حالة تسلط الغرائز ، وسيطرة الاستعدادات الفطرية عليها تكون
أمارة بالسوء :

« وما أَتْرَبُ ، نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَحِمَ رَبِّي » (٣) .

فإذا تعلمت وتهذبت بالدين ، والتعاليم المثالية ، ووجد الضمير . وهو الشعور
النفسى الذى يقف من المرء موقف الرقيب يدعو إلى الخير ، وينهى عن الشر ،
ويحاسب بعد أداء العمل مستريحاً للاحسان ، ومستفكراً للاساءة .

فإذا وصلت النفس إلى هذا الطور من اليقظة والمراقبة والمحاسبة واستراحت
للخير ، وضقت بالشر ، كانت في هذا الطور نفساً لوامة !

« لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » (٤) .

فإذا واصل الإنسان جهاد نفسه ، فتخلص من الهوى ، وكبت شهوته ، وارتفع
عن النقائص ، وسمت نفسه إلى الحق ، والخير ، والجمال والكمال — بلغ منزلة الرشد

(١) سورة الزمر الآية ٤٢

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٣

(٣) سورة يوسف الآية ٥٣

(٤) سورة القيامة الآية ١ - ٢

للدى يريد الله ان يصل إليه الانسان في هذه الحياة ، ليكون أهلا لجواره في
الدار الآخرة .

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ . وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكَفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » (١) .

وحين يرتفع الإنسان الى، هذا المستوى الرفيع تكون نفسه قد اطمانت
بالحق والخير ؛

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي
عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي » (٢) .

ومالم يصل الإنسان الى هذا المستوى يكون قد عرض نفسه لخسارة لا يمكن
داركها بعد

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا .
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (٣) .

الروح بعد مفارقتها للجسد

والروح بعد مفارقتها للجسد يكون الموت ، وتبقى هي مدركة تسمع من
يزورها ، وتعرفه ، وترد عليه السلام ، وتحس لذة النعيم ، وألم الجحيم .

قال ابن تيمية :

« وقد استفاضت الأخبار بمعرفة الميت بحال أهله وأصحابه في الدنيا ، وأن ذلك

(١) سورة الحجرات الآية ٧ (٢) سورة الفجر الآية ٢٧ — ٣٠

(٣) سورة الشمس من الآية ٧ — ١٠

يعرض عليه ، وأنه يرى ويدرى ما يُفعلُ عنده ، ويسر بما كان حسناً ، ويتألم بما كان قبيحاً ؟

وروى أن عائشة رضی الله عنها : بعد أن دفن عمر رضی الله عنه ، كانت تستتر وتقول : « كان أبي وزوجي ، فأما عمر فأجنيُّ » . . . تعني أنه يراها .

« وروى أن الموتى يسألون الميت عن حال أهلهم ، فيعرفهم أحوالهم . وأنه وُلِدَ لفلان ولد وتزوجت فلانة » ا هـ

السؤال في القبر !

اتفق أهل السنة والجماعة على أن كل إنسان يسأل بعد موته قَبْرَ أُمِّ لَمْ يَقْبَرَ فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ، ونسف في الهواء ، أو غرق في البحر لسئل عن أعماله ، وجوزى بالخير خيراً ، وبالشر شراً . وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معاً . قال ابن القيم :

مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ، ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد ، وقاموا من قبورهم لرب العالمين ، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل رضی الله عنه ، وصحيح أبي حاتم : أن النبي

صلى الله عليه وسلم : قال : —

« إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نالههم ، حين يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، والصيام عن يمينه ، والزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجله ، فيؤتى من قبل رأسه فيقول الصلاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى من يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجله ، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان : ما قبلي مدخل ، فيقال له : اجلس ، فيجلس ، قد مثلت له الشمس ، وقد أخذت للغروب . فيقال له : هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه ؟ وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : دَعُونِي أَصَلِّي ، فيقولان : إنك سنصلي ، أخبرنا عما نسألك عنه ؟ رأيتك^(١) هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه ؟ وما تشهد عليه ؟ فيقول : محمد — صلى الله عليه وسلم — أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله ، فيقال له : على ذلك حيت ، وعلى ذلك مت ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب إلى الجنة ، فيقال ، له : هذا مقعدك ، وما أعد الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسروراً ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، وينور له فيه ، ويعاد الجسد لما بدى منه ، وتجعل نَسْمَتُهُ^(٢) في النسم الطيب ، وهي طير معلق في شجر الجنة ، قال : فذلك قول الله تعالى :

« يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ »^(٣)

وذكر في الكافر ضد ذلك إلى أن قال : ثم يضيق عليه في قبره إلى

(١) رأيتك ! أي أخبرنا . (١) نَسْمَتُهُ : أي رُوحَه .

(٣) -سورة إبراهيم آية ٢٧

أن تختلف فيه أضلاعه ، فتلك المعيشة الضنكُ التي قال الله تعالى :
« فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا . وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » (١) .

وقال الحافظ في الفتح

وذهب ابن حزم ، وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط من غير
عودٍ إلى الجسد ، وخالفهم الجمهور ، فقالوا : تعاد الروح إلى الجسد ، أو بعضه كما
ثبت في الحديث ، ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن من ذلك اختصاص ،
ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزاءه ، لأن الله قادر أن يعيد الحياة إلى
جزء من الجسد ، ويقع عليه السؤال ، كما هو قادر على أن يجمع أجزاءه . والحامل
للقائلين : بأن السؤال يقع على الروح فقط . أن الميت قد يشاهد في قبره حال المسألة
لا أثر فيه ، من إقعاد ولا غيره ، ولا ضيق في قبره ، ولا سعة ، وكذلك غير
المقبور كالمصلوب . وجوابهم ! أن ذلك غير ممتنع في القدرة ، بل له نظير في العادة
وهو النائم ، فإنه يجد لذةً وألمًا ، لا يدركه جليسه ، بل اليقظان قد يدرك ألمًا ولذةً
لما يسمعه ، أو يفكر فيه ، ولا يدرك ذلك جليسه ، وإنما أتى الغلط من قياس الغائب
على الشاهد ، وأحوال ما بعد الموت على ما قبله ، والظاهر أن الله تعالى صرف
أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك وستره عنهم ، إبقاءً عليهم ، لئلا يتدافنوا
ولا يستلجوا رح الدنياوية قدرة على إدراك أمور المكوت ، إلا من شاء الله ،
وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور ، كقوله : « إنه ليسمع خفق نعالهم »
وقوله : « تختلف أضلاعه لضمّة القبر » . وقوله : « يسمع صوته إذا ضربه
بالمطراق » وقوله : « يضرب بين أذنيه » وقوله : « فيقعدانه » وكل ذلك من
صفات الأجساد :

مستقر الأرواح !

عقد ابن القيم فصلاً ذكر فيه أقوال العلماء في مستقر الأرواح ، ثم ذكر القول الراجح فقال !

« الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم التفاوت .
فنها : أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى ، وهى أرواح الأنبياء صلوات
الله وسلامه عليهم أجمعين . وهم متفاوتون في منازلهم ، كما رآهم النبي صلى الله
عليه وسلم ليلة الاسراء

ومنها : أرواح في حواصل طير خضِرٍ تسرح في الجنة حيث شاءت .
وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول
الجنة لدينٍ عليه أو غيره ، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جَحَش ، « أن رجلاً
جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما لي إن قُتِلْتُ في سبيل الله ؟
قال : « الجنة » ، فلما ولى . قال : إلا الدين سارني به جبريل آنفًا » .
ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة . كما في الحديث الآخر : « رأيت
صاحبكم محبوساً على باب الجنة » .

ومنهم من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلَّها^(١) ، ثم
استشهد فقال الناس : هنيئاً له الجنة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي
نفسي بيده إن الشملة التي غلَّها لتشتعل عليه ناراً في قبره » .

ومنهم من يكون مقره باب الجنة ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما
« الشهداء على بارقٍ نهرٍ بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة
بكرةً وعشية »^(٢)

(١) غلَّها : سرقها من الغنيمة قبل القسمة . (٢) رواه أحمد

وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب ، حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء

ومنهم من يكون محبوساً في الأرض ، لم تَعَلُّ روحه إلى الملائة الأعلى ، فإنها كانت روحاً سفليةً أرضيةً ، فان الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية ، كما لا تجامعها في الدنيا ، والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ، ومحبتة وذكوره والأنس به ، والتقرب إليه ، بل هي أرضية سفلية ، لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك .

كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكوره والتقرب إليه ، والأنس به ، تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة ، والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد - ويجعل روحه (يعني المؤمن) مع النسم الطيب « يعني الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه » فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها ، وإخوانها ، وأصحاب عملها ، فتكون معهم هناك .

ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني ، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة .

فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، بل روح في أعلى عليين ، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض .

وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب .. وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك ، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً ، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها . وأن لها شأنًا غير شأن البدن ،

وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء ، وتتصل بفنائ القبر وبالبدن فيه ، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً ، وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة ، (١٦ - العقيدة)

وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ، ومرض ، ولذة ، ونعيم ، وألم ، أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير ، فهناك الحبس والألم والعذاب والمرض والخسرة ، وهنالك اللذة والراحة ، والنعيم والاطلاق وما أشبه حالها في هذا البدن بحال الطفل في بطن أمه ! وحالتها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار ، فلهذه الأنفس أربع دور ، كل دار أعظم من التي قبلها .

الدار الأولى : في بطن الأم ، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث والدار الثانية : هي الدار التي نشأت فيها وأفتت بها ، واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة .

والدار الثالثة : دار البرزخ ، وهي أوسع من هذه الدار وأعظم ، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى .

والدار الرابعة : دار القرار ، وهي الجنة والنار ، فلا دار بعدها .

والله يتقلها في هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها . ولا يليق بها سواها ، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها .

ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن ، غير شأن الدار الأخرى ، فتبارك الله فاطرها ، ومُنشئها ، ومُميتها ، ومُحييها ، ومُسعدُها ، ومُسقيها ؛ الذي فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها . كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها .

وقواها وأخلاقها — فمن عرفها كما ينبغي ، شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله القوة كلها والقدر كلها والعزّ كله والحكمة كلها ، والكمال المطلق من جميع الوجوه ، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله ، وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول ، وتقرّ به الفطر ، وما خالفه فهو

الباطل ، وبالله التوفيق ؟

أشراط الساعة

- العلامات الصغرى
- العلامات الكبرى
- المهدي
- خروج المسيح الدجال

الساعة وإن خفي علمها على الناس ، فقد جعل الله لها أمارات تدل على قربها .
يقول الله سبحانه :

« فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » (١) .

وهذه العلامات منها : علامات صفري ، وعلامات كبرى .

العلامات الصفري

فأما العلامات الصفري ، ففجملها فيما يلي :

بعثة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وختم النبوة والرسالة به ، فمن
أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« بعثتُ أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى » (٢)

والمراد بهذا التشبيه أنه صلى الله عليه وسلم ليس بينه وبين الساعة نبي آخر ،
فهى تليه ، وتأتى بعده ، وهذا علم بقربها ، ولا يستلزم العلم بوقت مجيئها ؛ فإن العلم
بوقت المجيء لا يعلمه إلا الله .

وأن يصبح الملوك والأمراء والرؤساء من أولاد السراى ، لإيمان أولاد
بنات البيوتات العريقة فى حسن التربية ، وعلو الأخلاق ، وكال المروءة ، كما يصبح
أهل البداوة ، ورعاة الغنم من أصحاب الثروة والترف والقفصر العالية والترأس
على الناس .

فمن أبى هريرة : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوماً بارزاً للناس ، فأتاه
جبريل ، فقال ، يارسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ،
ولكن سأحدثك عن أشراطها :

(١) سورة محمد آية ١٨ . (٢) رواه البخاري . الترمذي .

« إذا ولدت الأمة ربتها ، فذاك من أشراطها .
« وإذا كانت الحفاة العرأة رعاءُ الشاء رهوسَ الناس فذاك من أشراطها .
« وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها » (١) .
وفي حديث جبريل أنه سأل الرسول عن الساعة ، فقال : « ما المسئول عنها
بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى
الحفاة العرأة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، » (٢) .

وفي حديث الإمام البخارى جملة من هذه العلامات ، عدتها إحدى عشرة علامة ،
فمن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، تكون بينهما قتلة عظيمة دعوتهما
واحدة (٣) ، وحتى يبعث (٤) دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه
رسول الله (٥) ، وحتى يقبض العلم (٦) ، وتكثر الزلازل (٧) ، ويتقارب

(١) رواه ابن أبي شيبة (٢) رواه البخارى ومسلم عن عمر

(٣) هامة الامام على وفئة معاوية (٤) أى يظهر

(٥) مثل مؤسس الفديانية والبهائية ، وآخر ما سمعنا به من هؤلاء الدجالين
الأحياء أليشع محمد الذى ظهر أخيراً فى المكسيك ، وادعى أنه رسول الله ، واستطاع
أن يضلل مجموعة كبيرة من الزوج الأمريكين ، ولا يزال يعمل على تضليل الناس
هناك باسم الدين ، وأنه رسول رب العالمين .

(٦) المراد بقبض العلم : قبض علماء الدين والدعاة إلى الله : ففى الصحيحين

عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله لا يقبض العلم
انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ
الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا ، وأضلوا » .

(٧) أى تكثر كثرة زائدة عما يعهده الناس ، وهذه الكثرة تكون مقدمة

للزلة الكبرى التى تتغير بها معالم الحياة .

الزمان^(١)، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج ، وهو القتل^(٢) ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهّم ربّ المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لأرب^(٣) لي به ، وحتى يتناول الناس في البنيان^(٤) ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول: يا ليتني مكانه^(٥) ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين (لا ينفعُ نفساً إيمانها لم تكن آمنتُ من قبلُ أو كسبتُ في إيمانها خيراً) ولتقوم الساعة ، وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعان ، ولا يطويان ، ولتقوم الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحّته فلا يطعمه^(٦) ،

(١) أى أن المسافات البعيدة تقطع في زمن قليل بواسطة سفن الفضاء والطائرات والبواخر والقطر ، ونحو ذلك مما اخترعه الناس ، وفي هذا إشارة من أمر الغيب الذى أعلم الله به رسوله بما سيحدث في مستقبل الزمان .

(٢) أى أن الفتن المذهبية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية تظهر بقوة ، فيتسبب عنها القتل الكثير ، كما حدث في الحرب العالمية الثانية ، وكما ينتظر أن يحدث فيما إذا قامت حرب ذرية عامة ، وهذه إحدى نبوءات الغيب .

(٣) لا أرب : لاجابة لكثرة المال التى تكون آخر الزمان .

(٤) وقد تناول الناس في هذا الزمان حتى بنوا ناطحات السحاب كما هو معروف في نيويورك وأمريكا وغيرها .

(٥) لما يرى من تقديم من يستحق التأخير وتأخير من يستحق التقديم وتجاهل أقدار أصحاب المواهب وكثرة التعرض للفتن .

(٦) اللقحة : ذات اللبن من الفوق .

ولتقوم الساعة وهو يُلِيط^(١) حوضه ، فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة ، وقد رفع
أكلته^(٢) إلى فيه ، فلا يطعمها .

أما العلامات الكبرى ، فنجملها فيما يلي :

طلوع الشمس من المغرب ، وخروج الدابة :

عند قرب الساعة يحدث تغيير في نظام الكون ، وتظهر آيات غير مألوفة
للشعر ، فتطلع الشمس من المغرب على خلاف ما نعهده الآن من طلوعها من المشرق ،
وتخرج دابة من الأرض تكلم الناس .

فمن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إن أول الآيات خروجاً : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على

الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتهما ، فالأخرى على أثرها قريباً^(٣) . »

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، ورآها الناس

آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت
في إيمانها خيراً^(٤) . »

(١) يُلِيطُ : يُصَلِّحُ .

(٢) أكلته : المصنعة من الطعام . والمعنى أن الساعة تأتي بغتة والناس

لا يشعرون .

(٣) رواه مسلم وأبو داود .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود : أي لا ينفع الإيمان نفساً كافرة لم تكن

آمنت من قبل ، ولا تنفع التوبة من المعاصي نفساً مؤمنة لم تكن كسبت خيراً في إيمانها .

ويقول الله سبحانه :

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » (١).

ففي هذه الآية إخبار عن خروج دابة تكلم الناس حينما يأتي أمر الله ، كمقدمة
من مقدمات الساعة ، وحينما لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت
في إيمانها خيراً .

ولا ينبغي أن يبحث عما وراء ذلك من الغرائب التي قيلت في وصف هذه
الدابة من أن طولها ستون ذراعاً بذراع آدم ، وأن لها وجه إنسان ورأس ثور
وعين خنزير وأذن فيل ، وأنه لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، وأنها تحمل
عصا موسى وخاتم سليمان ، فذلك لم يصح منه شيء .

قال الإمام الرازي : « واعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور ،
فإن صح الخبر فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وإلا لم ياتفت إليه » .

إن خروج الدابة غيب من الغيوب ، فيجب علينا الوقوف عندما أخبر به
القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ولم يأت فيهما سوى أن دابة ستخرج ، وتكلم
الناس ، وذلك من أمارات الساعة .

وقد ذكر في السورة نفسها ، أن موسى عليه السلام أتى عصاه بأمر الله ، فإذا هي
تهتز كأنها جان ، وأن سليمان عرف لغة الطير ، وسمع النملة وهي تدعو جماعتها ؛
لتدخل مساكنها ، مخافة أن يحطمها سليمان هو وجنوده وهم لا يشعرون ، وأن سليمان
تبسم ضاحكا من قولها .

وفي السورة أيضاً أن الهدهد كلم سليمان بنخبر سبأ ، وقال :
« إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيْنَ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَنْ لَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » (١) .

والدابة التي ستخرج من الأرض ، وتكلم الناس سيكوز . كلامها لهم من
هذا القبيل .

المهدى

خلاصة القول في الإمام المهدي : أنه سيظهر في آخر الزمان ، وأن اسمه محمد
ابن عبد الله ، وأحمد بن عبد الله (٢) ، وأنه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
من ولد فاطمة (٣) ، وأنه يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم في الخلق ، ولا يشبهه في
الخلق (٤) ، وأنه أجلى الجبهة ، أقى الأنف (٥) وأنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ،
كما ملئت ظلماً وجوراً ، وأنه يقيم شريعة الإسلام ، ويحيي ما اندثر من سنة رسول
الله عليه الصلاة والسلام ، وأن الإسلام تعلقته في عهده حتى يلقى بجرانه إلى
الأرض (٦) . ويمكن له ، ويكثر الرخاء في أيامه من وفرة العدل ، وكثرة ما يعطى

(١) سورة النمل آية ٢٣ - ٢٥ (٢) رواه أبو داود والترمذي

(٣) رواه أبو داود والحاكم (٤) رواه أبو داود من كلام الإمام علي

(٥) أي منحسر الشعر عن مقدم الرأس ، وأن أنفه طويل مع حذب وسطه

ودقة أرنبته

(٦) يقرأ مره ويستقر ، رواه أبو داود

من المال ، فهو يحثوا المال حثواً ، لا يمدُّه عدداً (١) ، وأنه يمكث سبع (٢) سنين
ويأتى بعده الدجال ، ثم ينزل عيسى ، فيتعاون عيسى مع المهدي على قتله ، ثم
يتوفى المهدي ، ويصلى عليه المسلمون .

هذه هي خلاصة الروايات التي تحدثت عن المهدي ، ورويت في شأنه ، وهي
في جملتها لا تخرج عن كونها اخباراً عن ظهور رجل من المصلحين في آخر الزمان
يرفع لواء الحق ، ويعلى كلمة الله ، ويمكن للإسلام ، ويكون طليعة للخير العام الذي يأتي
بعده ، كما كان يوحنا قبل ولادة عيسى عليه الصلاة والسلام .

على أثر ذلك يخرج الدجال اليهودي ، كظهر من مظاهر الفتنة الكبرى ؛ ليقاوم
هذه النهضة الإسلامية محاولاً فتنه الناس عن دينهم بما أُعطي من علم وبراعة وقوة
فيبطل الله أمره بما يحدثه من آيات أكبر من فتنته ؛ بإنزال عيسى عليه الصلاة والسلام
ليكون قوة للحق الذي يمثله المهدي حينئذ ، ويتعاون كل من عيسى والمهدي ومن
ورائهما كتائب الإسلام على قتله ، وإحباط أمره .

فإذا قتل الدجال انهزم اليهود الذين يقاتلون معه ، وعددهم سبعون ألفاً (٣) ثم
يكشف الله أمرهم ، فلا يتوارى منهم يهودى وراء شيء إلا أنطق الله هذا الشيء فقال:
يا عبد الله المسلم ، هذا يهودى فتعال اقتله . وبهذا يقضى على أكبر فتنة من الفتن
التي تحدث في الأرض ، ثم يأخذ عيسى في العمل على نحو المسيحية التي ارتكبت كل
الحماقات باسمه ، والتمكين لدين الحق دين الإسلام . ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم
فيكون عيسى في أمتي حكماً عدلاً ، وإماماً مقسطاً . يدق الصليب (٤) ، ويدبح

(١) رواه مسلم (٢) رواه أبو داود (٣) رواه ابن ماجه

(٤) يكسره إعلاناً بأنهاء المسيحية كما أنتهت على يديه اليهودية

الخنزير ، ويضع الجزية ^(١) ، ويترك الصدقة ^(٢) ، فلا يسعى على شاة ولا يعير ، وترفع الشحناء والتباغض ، وتُنزَعُ حَمَّةُ كُلِّ ذِي حَمَّةٍ ^(٣) حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره ، وتُفَرِّ الوليدة الأسد فلا يضرها ^(٤) ، ويكون الذئب في الغم كأنه كلبها وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة ، فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها ، وتكون الأرض كفاثور ^(٥) الفضة تنبت نباتها بعهد آدم ^(٦)

وبهذا يتحقق وعد الله من إظهار الإسلام وإعلانه على الدين كله
« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا » ^(٧).

ثم يحدث بعد ذلك النقصان ولا يزال الناس يبتعدون عن الدين شيئا فشيئا حتى يرتدون عن دينهم ، فتقوم الساعة وهم تلى ما هم عليه من كفر وردة وليس بعد الكمال ، إلا الفناء والزوال !!

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَّالِيًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ^(٨).

- (١) أى لا يقبل من أحد غير الإسلام (٢) لا يقبلها لغنى الناس وقتئذ
- (٣) ينزع السم من ذوات السموم (٤) تحاول أن تغفل به ما يهرب منه ويفر
- (٥) إناء الفضة (٦) تنبت نباتها كما كان على عهد آدم في نمائه وحسنه وبركته
- (٧) سورة الفتح آية ٢٨ . (٨) سورة يونس آية ٢٤ .

خروج المسيح الدجال (*)

من علامات الساعة وأماراتها الكبرى أن يخرج المسيح الدجال ، ويدعى الألوهية ، ويحاول أن يفتن الناس عن دينهم بما يحدثه من خوارق العادات ، وبما يظهر على يديه من عجائب ، فَيُفْتَنُ بِهِ بعض الناس ، وَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، فلا يخذعون بأضاليه ، ثم ينجلى أمره ، ويقضى على فتنته ، ويقتل بأبدي المسلمين وقائدهم حينئذ عيسى عليه السلام .

وقد حذرت الرسل أممهم من فتنته وغوايته ، كما حذر منها خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً .

فعن عمر « أن النبي صلى الله عليه وسلم استنصت^(١) الناس يوم حجة الوداع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر الدجال ، فأطنب في ذكره ، وقال : ما بعث الله من نبيّ إلا أنذرته أمته ، وإنه يخرج فيكم ، فما خفي عليكم من شأنه ، فلا يخفي عليكم إن ربكم ليس بأعور ، وإنه أعور العين اليمنى كأن عينه طافية^(٢) » .
قال الشيخ رشيد رضا :

« وبدل القدر المشترك منها^(٣) على أن النبي صلى الله عليه وسلم كشف له ، وتمثل له ظهور دجال في آخر الزمان ، يظهر للناس خوارق كثيرة ، وغرائب يفتتن بها خلق كثير ، وأنه من اليهود ، وأن المسلمين يقاتلونه ، ويقاتلون اليهود في هذه البلاد المقدسة ، وينتصرون عليهم وقد كشف له ذلك مجلًا غير مفصل ، ولا يوحى به

(*) سمي بهذا الإسم لأنه يمسح الأرض ويقطعها في مدة زمنية ، ولأنه أعور

ممسوح العين .

(١) استنصت : أى طلب سكوتهم .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) أى الأحاديث الواردة في الدجال .

عن الله ، كما كشف له غير ذلك من الفتن فذكره ، فتناقله الرواة بالمعنى ، فأخطأ كثير منهم ، وتعمد الذين كانوا يبشرون الإسرائيليات الدس في رواياتهم .
ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة في هذا المعنى يستيعنون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية كالكهرباء والكيمياء وغير ذلك . والله أعلم .

ويؤيد هذا الذي قاله الشيخ رشيد الأحاديث الآتية .
عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، حتى يقول الحجر وراءه اليهودى :
يا مسلم هذا يهودى ورأى فاقته »^(١)

وهذا مجاز عن عدم إفادة الاختباء شيئاً .
وعن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« عمران بيت المقدس خراب يثر ، وخراب يثر يخرج خروج الملحمة ، وخروج
الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال »^(٢)
وهذا الفتح غير الفتح الأول ، ففي رواية الترمذى « فتح القسطنطينية مع
قيام الساعة »

نزول عيسى عليه السلام

يستخلص من مجموع الأحاديث أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر
الزمان أثناء وجود الدجال ، ويكون نزوله هذا علامة من علامات الساعة الكبرى ،
فيحكم بالقسط ، ويقضى بشريعة الإسلام ، ويحجى من شأنها ما تركه الناس ، ويقتل
الدجال ، ثم يمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يموت ، ويصلى عليه ، ويدفن ، ثم
تهب ريح تقبض أرواح المؤمنين جميعاً ، فلا يبقى بعد ذلك إلا شرار الناس ،
فلا يكون بعد الكمال إلا الفناء والزوال .

(٢) رواه أبو داود

(١) رواه البخارى ومسلم

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« والذئب نعدى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً^(١) ،
فيكسر الصليب^(٢) ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية^(٣) . زيفي^(٤) المال ، حتى
لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم قال
أبو هريرة رضى الله عنه ، اقرءوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به
قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً^(٥) »
أى ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام ، قبل موت
عسى حين ينزل إلى الأرض ، قبل قيام الساعة .

وعن عروة بن مسعود الثقفي رضى الله عنه قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول:
« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج الدجال فى أمتى ، فيمكث
أربعين ، قال : لا أدري أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً . . . ،
فبيعت الله عيسى ابن مريم ، كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه ، فيهلكه ، ثم يمكث
الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ،
فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى
لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس فى خفة

(١) أى حاكماً بشريعة الإسلام ، قائماً بالعدل .

(٢) يكسر الصليب إظهاراً لكذب النصارى وافتراءهم عليه فى دعوى أنه

قتل وصلب .

(٣) يسقطها عن أهل الكتاب ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام .

(٤) أى يكثر الخير بسبب العدل .

(٥) رواه البخارى ومسلم .

الطير وأحلام السباع^(١) ، لا يعرفون معروفًا ، ولا ينكرون منكرًا ، فيتمثل لهم الشيطان ، فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور ، فيصعق الناس ، ثم ينزل الله مطراً كأنه الطل^(٢) فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه^(٣) . أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلم إلى ربكم « وقفوهم إنهم مسئولون » ثم يقال : أخرجوا لبعث النار ، فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون . قال : فذاك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء »^(٤) .

(١) أحلام السباع : أي أنهم يسرعون إلى الشر والظلم ، فيكونون في المسارعة كالطير ، وفي الظلم كالسباع المفترسة .

(٢) كأنه الطال : أي المطر الخفيف .

(٣) ينفخ فيه : أي الصور ولا يعلم عنه أحد شيئاً إلا أن قرن ينفخ فيه ، فتكون الساعة ، وتقوم القيامة ، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فيكون البعث . وما بين النفختين مدة زمنية غير معلومة بالضبط عن أبي هريرة رضي الله عنه . عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : « ما بين النفختين أربعون : قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً . قال : أبيت^(*) قالوا : أربعون شهراً قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة . قال أبيت . ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة .

(*) أبيت . لا أدري — عجب الذنب : هو آخر عظم سلسلة الظهر لا يدركه

البلى ، ومنه ينبت الجسم في النشأة الآخرة .

(٤) رواه البخاري ، ومسلم

اليوم الآخر

- الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان العقيدة .
- لم يخلق الإنسان عبثاً
- مفهوم اليوم الآخر
- اهتمام القرآن به
- حكمة الاهتمام به
- بداية اليوم الآخر
- العلم الطبيعي واليوم الآخر
- متى هو ؟
- البعث
- أدلة البعث
- شبهة منكرى البعث
- اختلاف الناس عند البعث
- الشفاعة

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان ، وجزء من أجزاء العقيدة ، بل هو العنصر الممام الذى بلى الإيمان بالله مباشرة .

لأنّ الإيمان بالله يحقق المعرفة بالمصدر الأول الذى صدر عنه الكون ، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذى ينتهى إليه هذا الوجود .

وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن للإنسان أن يحدد هدفه ، ويرسم غايته ، ويتخذ من الوسائل والذرائع ما يوصله إلى الهدف ، ويبلغ به الغاية . ومتى فقد الإنسان هذه المعرفة فإن حياته سوف تبقى حياة لا هدف لها ، ولا غاية منها .

وحيثُذ يفقد الإنسان سموه الروحى ، وفضائله العليا ، ويعيش كما تعيش الأنعام ، تسيرها غير أثرها الطبيعية ، واستعداداتها الفطرية ، وهذا هو الانحطاط الروحى للدمر لشخصية الإنسان .

لم يخلق الانسان عبثاً

والقرآن الكريم يلفت الأنظار إلى أن الله لم يخلق الإنسان من غير هدف عال ، ولا غاية سامية ؛ لأن ذلك يتناقض مع كاله الأقدس وحكمته العليا . فالله لم يخلق الإنسان بيده ، ويففخ فيه من روحه ، ويفضله على ملائكته ، ويسخر له مافى السموات وما فى الأرض ، ويجعله سيد هذا الكوكب الأرضى دون غاية أو غرض .

فان ذلك عبث يتنزه الله عنه .

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » (١) .

إن للإنسان رسالة وهي الخلافة عن الله في الأرض ، وقد كلف بالقيام بواجبات هذه الخلافة ، وهو مسئول عنها أمام الله .

وحسبانُ غير هذا عدول عن الحق إلى الضلال .

« أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنثَى ، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » (٢) .

مفهوم اليوم الآخر

يبدأ اليوم الآخر بفتنة عالمنا هذا ، فيموت كل من فيه من الأحياء ، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات :
ثم ينشئ الله النشأة الآخرة ، فيبعث الله الناس جميعاً ، ويرد إليهم الحياة مرة أخرى .

وبعد البعث يحاسب الله كل فرد على ما عمل من خير أو شر .
فمن غلب خيره شره أدخله الله الجنة ، ومن غلب شره خيره أدخله الله النار .

اهتمام القرآن بتقرير الإيمان بهذا اليوم

والقرآن يهتم اهتماماً بالغاً بتقرير الإيمان بهذا اليوم ، ويبدو هذا الاهتمام باليوم الآخر فيما يلي :

(١) سورة المؤمنون آية ١١٥ ، ١١٦

(٢) سورة القيامة الآيات ٣٦ - ٤٠

أولاً : يربطه بالإيمان بالله .

« وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (١) .
« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢) .

ثانياً : يكثّر القرآن من ذكره له ، فلا تكاد سورة تخلو من الحديث عنه ، مع
تقريبه إلى الأذهان تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الأمثال .

ثالثاً : أن المتتبع لآيات القرآن يجد أنه وضع لهذا اليوم أسماء كثيرة ، وكل
اسم منها يدل على معنى ما سيحدث من أهوال في هذا اليوم .

فهو يوم البعث :

« وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ
الْبَعْثِ . فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (٣) .

ويسمى يوم القيامة :

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » (٤) .

ويسمى الساعة :

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » (٥) .

« إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » (٦) .

(١) سورة البقرة من الآية ١٧٧ . (٢) سورة البقرة الآية ٦٢

(٣) سورة الروم الآية ٥٦ (٤) سورة الزمر الآية ٦٠

(٥) سورة القمر الآية ١ (٦) سورة الحج الآية ١

ويسمى الآخرة :

« بَلْ تَوَثُّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى »^(١)

ويسمى يوم الدين :

« مَا لِكَ يَوْمِ الدِّينِ » أى يوم الجزاء^(٢)

ويسمى يوم الحساب :

« إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

الحساب ،^(٣) .

ويسمى يوم الفتح :

« قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ »^(٤) .

ويسمى يوم التلاق :

« رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ، يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ »^(٥) .

ويسمى يوم الجمع والتعابن :

« يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ »^(٦) .

(١) سورة الأعلى الآيات ١٦ ، ١٧ (٢) سورة الفاتحة الآية ٣

(٣) سورة غافر الآية ٢٧ (٤) سورة السجدة الآية ٢٩

(٥) سورة غافر الآية ١٥

(٦) التعابن ! يوم يفن فيه أهل الجنة أهل النار ، ويقال يوم الدهول الذى

يحصل بين الناس من شدة الهول . سورة التعابن الآية ٩

ويسمى يوم الخلود :

« ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ » (١)

ويسمى يوم الخروج :

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » (٢)

ويسمى يوم الحسرة :

« وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » (٣)

ويسمى يوم التناد :

« وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ » (٤)

ويسمى الآزفة :

« أُرِيفَتِ الْأَزْفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ » (٥)

ويسمى الطامة :

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى . يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى » (٦)

(١) سورة ق الآية ٣٤ (٢) سورة ق الآية ٤٢

(٣) سورة مريم ٣٩

(٤) التناد : يوم ينادى فيه أهل الجنة والنار . سورة غافر الآية ٣٢

(٥) الآزفة : القريبة يوم القيامة . سورة النجم الآيتان ٥٧ ، ٥٨

(٦) الطامة : الداهية ، لأنها تطم على كل شيء أى تعلوه وتغطيه ، أى أنها تملو

على سائر الدواهي . سورة الغازعات الآيتان ٣٤ ، ٣٥

ويسمى الصّاحّة :

« فَإِذَا جَاءتِ الصّاحّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ
وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْنِيهِ » (١) .

ويسمى الحاقّة :

« الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » (٢)

ويسمى الفاشية :

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ » (٣)

ويسمى الواقعة :

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ، خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » (٤)

حكمة الإهتمام به :

وإنما اهتم القرآن هذا الإهتمام باليوم الآخر لعدة أسباب :

أولاً : أن المشركين من العرب كانوا ينكرونه أشد إنكار .

(١) الصّاحّة : تصخ : أى نعم الأذان من شدتها سورة عبس الآيات ٣٣

(٢) الحاقّة ، سمى اليوم بذلك لأن فيه تظهر حقائق الأمور ، وهى مأخوذة من

حق الشيء إذا ثبت ووجب ، لأن حصولها واجب سورة الحاقّة الآيات ١ - ٣

(٣) الفاشية : الداهية التى يفشى هولها للناس سورة الفاشية الآية ١

(٤) الواقعة : لأنها ستقع قطعاً لا محالة سورة الواقعة الآيات ١ - ٣

« وَقَالُوا : مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا . وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا
الدَّهْرُ » (١)

ثانياً : أن أهل الكتاب وإن كانوا يؤمنون باليوم الآخر إلا أن تصورهم له
قد بلغ منتهى الفساد .

فالنصارى : مثلاً يمتدنون فيه على وجود يسوع القادى المخلص الذى يقضى
الناس بنفسه ، ويخلصهم من عقوبة الخطايا .

وهذا يطابق ما يقوله الهنود فى كرشنه ، وبوذا ، سواء بسواء

وعقيدة اليهود فى الله وفى اليوم الآخر لا تقل فى فسادها وضلالها عن عقيدة

النصارى ، والهنود .

ثالثاً : أن الإيمان باليوم الآخر يجعل حياتنا غاية سامية ، وهدفاً أعلى ، وهذه
الغاية هى فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، والتحلّى بالفضائل ، والتخلّى عن الرذائل
الضارة بالأبدان والأديان ، والأعراض والمعقول ، والأموال . أى تحقيق معنى الخلافة
ولا بد من تقوية الوازع النفسى الذى يرغّب فى الخير ، ويصد عن الشر ،
ولا يقوى الوازع إلا بكثرة التذكير والتفنن فى التصوير ، وضرب الأمثال المتنوعة
حتى تعمق جذوره ، ويقوى تأثيره ، ويحقق الغاية منه ، فيرجع المنكر عن انكاره ،
ويصحح المخطىء خطاه ، ويمدد كل إنسان هدفه الأعلى كى لا يضل الطريق ،
أو تتمثر به الخطا .

بداية اليوم الآخر :

ويؤخذ من مجموع الآيات الكريمة أن اليوم الآخر يبدأ بإحداث تنبير عام
فى هذا الكون ، فتنشق السماء ، وتتفأثر النجوم ، وتتصادم الكواكب ، وتفتت
الأرض ، ويحرب كل شىء ، ويدمر كل ما عرفه الناس فى هذا الوجود .

« يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » (١)

العلم الطبيعي واليوم الآخر

وهذا التخريب العام الشامل ليس بمحال ، او بعيد الحصول ، فقد ثبت لدى علماء العلم الطبيعي أن هذا الكون سيأتي يوم ينتهي فيه كل شيء ، فكأنه تطور من الزمن لتقديم إلى ما انتهى إليه في وضعه القائم ، فإنه سيتطور تطورا حتميا إلى الفناء والزوال .

فليس فيما قرره القرآن الكريم عن نهاية هذا العالم ما يتنافى مع أحدث نظريات العلم الطبيعي .

ومن أدل الدلائل على أن هذا من عند الله ، أنه لم يسبق أن تحدث أحد عن فناء هذا الكون بهذه الصورة ، كما لم تتحدث الأديان السابقة ، ولا يمكن أن يكون من تفكير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذه إحدى معجزاته !!

متى هو ؟

وقيام الساعة أو اليوم الآخر مما استأثر الله بعلمه ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه لانبياً مرسلًا ، ولا ملكاً مقرباً .

« إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » (٢)

ولقد كان الناس يسألون عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَيُلْحِقُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، فأمره الله أن يردَّ علمها إليه وحده

(٢) سورة لقمان الآية ٣٤

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٨

« إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ » (١)

وسجل هذا السؤال والإجابة عليه فقال :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرُودُهَا. قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا (٢) لَوْ قَتَلْتَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ (٣) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ (٤) عَنْهَا . قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (٥)

عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

« مفاتيح الغيب خمس لا يعلمنَّ إلا الله :

« إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى

نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت »

قال الألوسى فى تفسيره : وإنما أحفى الله سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة

التشريعية ذلك ، فإنه أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل

الخاص للانسان كذلك .

ولو قيل : بأن الحكمة التكوينية تقتضى ذلك أيضا لم يبعد .

وظاهر الآيات أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم وقت قيامها . . نعم عليه الصلاة

والسلام قرَّبها على الإجمال ، وأخبر صلى الله عليه وسلم به ، فقد أخرج الترمذى ،

وصححه عن أنس مرفوعا : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى »

(١) سورة فصلت الآية ٤٧ (٢) لا يجليها لوقتها : أى يظهر أمرها

(٣) ثقلت : أى صعب عليها ، فلا يستطيع أهل السموات والأرض الوصول إليه

(٤) حفيٌّ عنها : أى عالم بها (٥) سورة الأعراف الآية ١٨٧

و بين - ب. عمر رضى الله عنهما ، روعا أيضا
« وإنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس ،
أما نهاية هذه الحياة فلم يأت فيها حديث صحيح يمكن التعويل عليه .
قال ابن حزم : وأما نحن يعني المسلمين ، فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ،
ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة ، أو أكثر ، أو أقل — فقد قال ما لم يأت قط
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لفظة تصح ، بل صح عنه صلى الله عليه وسلم
خلافه ، بل نقطع على أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه :
« مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ » (١)
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما أتم في الأمم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، أو الشعرة
السوداء في الثور الأبيض » .

وهذه نسبة من تدبرها ، وعرف مقدار عدد أهل الإسلام ونسبة ما بأيديهم
من معمور الأرض . علم أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله . وكذلك قوله عليه
الصلاة والسلام :

« بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ ، وَضُمَ أَصْبَعِيهِ السَّبَابَةُ وَالْوَسْطَى »

وقد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله تعالى لا أحد سواه ،
فصح أنه صلى الله عليه وسلم إنما أراد شدة القرب لا فصل الوسطى عن السبابة ،
إذ لو أراد ذلك لأخذت نسبة ما بين الأصبعين ونسب من طول الأصبع ، فكان

يسلم بذلك متى تقوم الساعة . وهذا باطل ، وأيضا فكان تكون نسبته صلى الله عليه وسلم إيانا إلى من قبلنا بأننا كالشعرة في الثور كذبا . . ومعاذ الله من ذلك ، فصح أنه صلى الله عليه وسلم إنما أراد شدة القرب ، وله صلى الله عليه وسلم منذ بعث أربعائة عام ونيف وألف والله تعالى أعلم بما بقي من عمر الدنيا ، فإذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عندما سلف لقلته ، وتفاهته بالإضافة إلى ما مضى ، فهو الذى قال صلى الله عليه وسلم من أننا فيمن مضى كالشعرة في الثور أو الرقعة في ذراع الحمار .

البعث

ويبدأ اليوم الآخر بالبعث : وهو إعادة الإنسان روحاً وجسداً ، كما كان في الدنيا ، وهذه الإعادة تكون بعد العدم التام ، ولا يستطيع الإنسان معرفة هذه النشأة الأخرى ، لأنها تختلف تمام الاختلاف عن النشأة الأولى .

« نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ » (١)

أدلة البعث

ولقد أورد القرآن الكريم أدلة كثيرة على البعث . مستدلاً بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة ، ومبيناً أن الله قادر على كل شيء ، وعالم بكل شيء فلا تعجزه إعادة الأجسام لفهوذ قدرته ، ولا يضيع منها شيء لسعة علمه .

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (١) .

والإنسان وتطوره في الخلق ، وتحوله من حال إلى حال ، والأرض وما تخرجه من نبات ، مظهر للعلم والقدرة .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ (٢) ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ (٣) ، ثُمَّ مِّنْ مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ (٤) وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (٥) لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَّىٰ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » (٦) .

(١) سورة يس الآيات ٧٨ ، ٧٩

(٢) تراب : العناصر التي يتركب منها جسم الانسان هي نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض . وتتحول هذه العناصر من تربة الأرض إلى جسم الانسان بواسطة الطعام الذي يتناوله مما خرج من الأرض

(٣) العلقه : هي الدم المتجمد الغليظ (٤) المضغفة : هي قطعة لحم بقدر ما يمزغ

(٥) مخلقة وغير مخلقة : أى منتظمة الشكل وغير منتظمة

(٦) سورة الحج الآية رقم ٥

وإذا كان الله لم يبي بخالق السموات والأرض ، ولا يزال يخلق ، ويرزق ويحيى ، ويميت ، فهل يستبعد بعد هذا المشاهد المنظور — أن يعيد الخلق مرة أخرى ! .

« أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ »^(١) .
إن إنكار البعث وإعادة الحياة مرة أخرى بعد هذه الدلائل البينة في الأفس والآفاق لا معنى له

شبهة منكرى البعث

لقد استبعد طوائف من الناس هذه الحقيقة ، زاعمين أنها مخالفة لما عهدوه من السنن المألوفة ، ومستبعدين ذلك ، ومستعظمين أمره ، لأن عقولهم لا تكاد تصدق إعادة الحياة إلى الأجسام بعد تفرقها ، وتحللها ، وبعد أن يتداخل بعضها في بعض ، فإن الإنسان بعد أن يموت يتحول جسمه إلى تراب ، ثم يتحول التراب إلى نبات فيفتدى إنسان آخر بذلك النبات ، ثم يموت .
هكذا الإنسان يتحول كغيره ، وهكذا تتداخل الأجسام بعضها في بعض ، فكيف يبعث الناس بعد هذا التداخل؟^(٢)

وهذه الشبهة قديمة ، ولا تزال تتردد في صدر الكثير ، والقرآن ذكر هذه الشبهة وعالجها ، فقال : —

« وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

(١) أفمينا: أى مجزنا سورة ق الآية ١٥

(٢) يجب علماء العقائد عن هذه الشبهة بأن للإنسان أجزاء أصلية وأجزاء عرضية ، والأجزاء الألفية تبقى كما هى . والعرضية هى التى تتحول ؟

وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ، وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قُلْ :
اللَّهُ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ النِّيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ « (١)

فهؤلاء الذين استنكروا البعث ، ردَّ الله عليهم بأن استبعادهم لا معنى له ؟
لأنهم يجهلون عظمة الله ، وقدرته ، وعلمه وحكمته ، وأنهم لا يبصرون في أنفسهم ،
فهم أنفسهم أدل الدلائل ، وأقوى الحجج على نفي ما ينكرونه من البعث ، فالله أحياءهم
أولاً وأماتهم ثانياً ، ولا تزال القدرة صالحة لإحيائهم مرة ، وجمعهم مرة أخرى
يوم القيامة ، فأى استبعاد في هذا ؟ !

« وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَ لَهُ الْمَثَلُ
الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ « (٢)

اختلاف الناس عند البعث :

والناس يختلفون عند البعث اختلافاً كبيراً حسب أعمالهم ، فالذين صالحت
عقائدهم وأعمالهم ، وزكت نفوسهم ، يكونون أكمل أجساداً وأرواحاً ، والذين خبثت
أعمالهم ، وفسدت عقائدهم يكونون أنقص أجساداً وأرواحاً .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

« يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ،

(١) سورة الجاثية : الآيات ٣٤ - ٣٦ .

(٢) سورة الروم : الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

وصنف على وجوههم ، قيل : يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم . أما إنهم يتقون بوجوههم كل خدب وشوك^(١) .

وفى الحديث يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :
« يحشر المتكبرون والمتجبرون يوم القيامة فى صور الذرّ تطوهم الناس ؛ لهوانهم على الله عز وجل » .

وروى مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله يقول : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » أى إن من مات على خير بعث على حال سارّة ، ومن مات على شر بعث على حال شنيعة .

ومع كون البعث بالأجساد والأرواح إلا أن القوى الروحية تكون هى القادرة على التصرف فى الأجساد فتستطيع قطع المسافات البعيدة فى أقصر مدة ، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة والنار ، ويكون مثلهم فى ذلك مثل الملائكة والجن فى قدرتها على التشكل وظهورها فى أجساد تأخذها من مادة الكون ، وقد ثبت ذلك ثبوتاً علمياً . كما تقدم فى بحث مسألة الروح .

الشفاعة :

المقصود بالشفاعة : سؤال الله الخير للناس فى الآخرة ، فهى نوع من أنواع الدعاء المستجاب .

ومنها الشفاعة العظمى ، ولا تكون إلاّ لسيدنا محمد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه يسأل الله سبحانه أن يقضى بين الخلق ؛ ليستريحوا من هول الموقف ، فيستجيب الله له ، فيغبطه الأولون والآخرون ، ويظهر بذلك فضله

(١) حدب : الحذب ما ارتفع من الأرض . رواه الترمذى .

على العالمين ، وهذا هو المقام المحمود الذي وَعِدَ به في قول الله سبحانه .
« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا » (١)

وعن ابن عمر رضی الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إن الشمس تندو يوم القيامة ، حتى يبلغ العرقُ نصفَ الأذن ، فينأهم كذلك
استغاثوا بآدم ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم بموسى ، فيقول كذلك ، ثم
بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيشفع ؛ ليقضى بين الخلق ، فيمشی ، حتى يأخذ بحلقةِ
باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمدُه أهل الجمع كلهم » (٢) .

وعن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إذا كان يوم القيامة كنتُ إمامَ الأنبياء ، وخطيبهم ، وصاحبَ شفاعتهم
من غير نخر » (٣)

وماعدا هذه الشفاعة من الشفاعات (٤) فهي مشروطة :
بأن تكون بإذن الله . « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » (٥)
وأن تكون لمن ارتضى الله أن يشفعَ له .
« وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » (٦)

(١) سورة الإسراء آية ٧٩ . (٢) رواه أبو داود والحاكم

(٣) رواه أبو داود

(٤) سنن أبي شافعة الرسول صلى الله عليه وسلم في إخراج عصاة المؤمنين من النار .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٦) سورة الأنبياء الآية ٢٨

ولا يرتضى الله الشفاعة إلا لمن يستحقون العفو على مقتضى العدل الإلهي ،
وتكون الشفاعة لإظهار كرامة الشافع ومنزلته عند ربه تنفيذاً للإرادة الإلهية عقب
دعائه وطلبه من الله ، وليس فيها ما يدعو إلى الفرور أو التهاون في ترك ما كلف الله
به من إيمان تزكو به النفس ، وعمل صالح يصل بالإنسان إلى كماله المنشود .
وكان الوثنيون يعتمدون على أوثانهم ، ويعتقدون أنها ستشفع لهم عند الله .
« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ
شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » (١)

فأيامهم الله من الاعتماد على هؤلاء الشفعاء .

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ، إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ، فِي جَنَّاتٍ
يَتَسَاءَلُونَ ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ ، مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ،
وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ، وَكُنَّا نَكْذِبُ
بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينِ ، فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » (٢)

وقد اعتاد كثير من الناس الاعتماد على شفاعة الصلحاء ، واستساعوا كل لون
من ألوان الانحراف ، واخرجوا عن طاعة الله ، ارتكباناً على هذه العقيدة ، فقطع الله
حجتهم ، وأنزل قواه :

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا
يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوَٰلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ، وَمَنْ

(١) سورة يونس آية ١٨

(٢) سورة المدثر الآيات ٢٨ — ٤٨ .

أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا. (١)

إن الدين الحق هو إسلام الوجه لله ، وإحسان العمل ، وإن روح الإسلام هي وصاية رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة رضی الله عنها :

« اَعْمَلِي يَا فَاطِمَةُ فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . »

والله يتنزه عن محابة أحد من خلقه وهذه سنته في الأولين والآخرين :

« أُمُّ لَمْ يُدْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » (٢)

(١) سورة النساء الآية ١٢٣ - ١٢٥

(٢) سورة النجم الآية ٣٦ - ٤١

الحساب

- الحساب هو مقتضى العدل الإلهي
- كيفية الحساب
- العلم وتسجيل الأعمال
- دقة الحساب
- الله هو الذي يتولى الحساب
- رحمة المؤمن في الحساب
- الحوض
- الصراط

الحساب هو مقتضى العدل الإلهي

إن الله سبحانه متصف بصفات الكمال ، ومن صفاته الكمالية ، العدل ،
والحكمة ، فهو عدل لا يظلم أحداً من خلقه ، وحكيم لا يضع الشيء في غير موضعه .
ومن عدله وحكمته ألا يسوّى بين البرّ والفاجر ، ولا بين المؤمن والكافر ،
ولا بين الحسن والسيء ؛ فإن التسوية بينهما منتهى الظلم والسفه .

والله سبحانه قد أرسل رسوله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم
الناس بالعدل ، فاهتدى فريق إلى الله وانحرف فريق عن هدايته ، فلم تكن له
العقيدة الحقّة ، ولا العبادة الصحيحة ، ولا العمل الصالح .

والذين اهتدوا كلفتهم الهداية جهاداً شاقاً ، وتضحيات مريرة ، ومغالبة للهوى ،
ومحاربة للباطل ، ومكافحة للشور والآثام . وطال جهادهم ، ودام كفاحهم حتى
اللعظات الأخيرة من حياتهم .

فهل يستوى هؤلاء الأبرار مع التافهين الفارغين العسقة، الذين استحبوا العى على
الهدى ، وآثروا الفنى على الرشد ، وتعجلوا حظوظهم الدنيئة ، وشهواتهم الخسيسة ،
وظلوا سادرين في غيهم لا يصدّم عنه صاد ، ولا يأخذ بمجزاتهم أحد

نقد قضى كل من الفريقين حياته ، هذا يجاهد في سبيل الله ليعلى كلمته ، ويرفع راية
الحق ، وليطهر الأرض من الشر والفساد ؛ وذلك يجاهد من أجل شهواته وغرائزه
الدنيا ، سائراً في ركب الشيطان ، مؤتمراً بأمر نفسه الأمارّة بالسوء ، فهل من العدل
والحكمة أن يكون مصير هؤلاء جميعاً واحداً ، إن ذلك لا يجوز في العقل السليم ، بله
اللهُ عدلُ العادلين ، وأحكم الحاكمين .

إن الحكم بالتسوية بين الفريقين حكم جائر :

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَجْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (١)

إن التسوية بين مصير الصالحين وغيرهم تفكير السطحيين الذين يحسبون الحياة لهواً ولعباً .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » (٢)

إن الناس لا يعلمون هذه الحقيقة ، ولما يتذكرونها .

« لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَمُدُّ كَرُونَ ، إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » (٣)

إنه لا بد من يوم تتكشف فيه الحقائق ، وتظهر فيه مكنونات الضمائر .

« وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ » (٤)

(٢) سورة ص آية ٢٧ ، ٢٨

(١) سورة الجاثية آية ٢١ ، ٢٢

(٤) سورة النجم الآية ٣١

(٣) سورة غافر آية ٥٧ — ٥٩

وكان المشركون يمارون في الساعة أشد المرء ، ويكذبون بها كأعظم ما يكون التكذيب ، ويحلفون بالأيمان المغلظة أن ذلك لن يكون ، فذكر الله تكذيبهم ، ورد عليهم : بأن ذلك مقتضى حكمته ؛ حتى يتميز الحق من الباطل .
ويتبين الصادق من الكاذب .

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ » (١) .

كيفية الحساب

بعد أن يرد الله الحياة إلى الناس من جديد يحشرهم إليه ، ويجمعهم لديه ، ليحاسب كل فرد منهم على ما عمل من خير أو شر ، فنشهد الأرض بما حدث عليها .
« إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ (٤) النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٥) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) سورة النحل الآية ٣٨ ، ٣٩ (٢) الزلزلة : هى الاضطراب الشديد

(٣) أثقالها : الجثث المدفونة فيها

(٤) يصدر الناس أشتاتاً : يبعثون أفراداً متفرقين من الهول ليروا أعمالهم .

(٥) مثقال : قدر .

« يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » .

فقال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها : أن تقول : عمل كذا ، وكذا ، يوم كذا وكذا . قال : فهذه أخبارها ، (١)

وكا تتحدث الأرض عن أخبارها تشهد الألسنة ، والأيدى ، والأرجل ، والجلود وبهذا تتم حجة الله على العالم .

« يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ . وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، (٢)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا . قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَاقِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (٣)

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

(١) رواه أحمد والبخاري والترمذي وصححه

(٢) سورة النور الآيات ٢٤ ، ٢٥ (٣) سورة فصلت الآية ١٩ ، ٢٣

مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ .
وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا . ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا
عَمَلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(١) .

وعن ابن عباس رضی الله عنهما قال :

« قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال :

« يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى حفاة عراة غرلاً ^(٢)

« كما بدأنا أول خلقٍ نعيدهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ .

« ألا إن أول الخلائق بكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه سيجاء برجال

من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي فيقال : إنك لا تدري

ما أحدثوا بمديك . فأقول كما قال العبد الصالح :

« وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ

عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ

لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(٣) .

قال : فيقال لي : إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول :

« سَحَقًا سَحَقًا ، ^(٤)

(١) سورة المجادلة الآية ٦ ، ٧

(٢) أى أن حشر الناس إلى الله يوم القيامة يكون وهم حفاة عراة غير محتونين

كما كان خلقهم من بطون أمهاتهم

(٣) العبد الصالح هو سيدنا عيسى عليه السلام المائدة آية ١١٨

(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى

وعن أبي برزة الاسلمى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لا تزول قدما عبد حتى يسأل : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن علمه فيم فعل فيه ؟
وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه »^(١)

كيفية إحصاء الأعمال وعرضها

وإحصاء الأعمال وتسجيلها يكون بواسطة الملائكة الموكلين بها كما تقدم في
بحث الملائكة .

« وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ »^(٢) .
« مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »^(٣) .

فإذا كان يوم الحساب جىء بالكتب التي دونت فيها الأعمال لتعرض
على أصحابها .

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا
يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »^(٤) .
« وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ
يَا وَيَلَّتْنَا مَالًا هَذَا الْكِتَابُ لَا يَعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »^(٥) .

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح

(٢) سورة الانفطار الآيات ١٠ - ١٢ (٣) سورة ق الآية ١٨

(٤) سورة الإسراء الآية ١٣ ، ١٤ (٥) سورة الكهف الآية ٤٩

وهذه الكتب التي توزع على أصحابها ، منهم من يأخذ كتابه بيمينه ويكون بشرى من البشريات السارة ، ومنهم من يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره . ويكون ذلك علامة على سوء الحساب .

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ . فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا . وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ، بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا » (١) .

العلم وتسجيل الأعمال

وتسجيل الأعمال من الأمور التي قد ثبتت ثبوتاً علمياً فما من صوت من الأصوات ولا عمل من الأعمال ، ولا حركة من الحركات ، إلا وهي مسجلة في سجل الكون ، ومدونة في كتاب الوجود ، فليس منها شيء ضائع ، ولا يمكن لشيء منها أن يزول ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ . وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٢) .

(١) الانشقاق الآية ٦ ، ١٥) كادح - ساع إلى لقاء ربك بالموت فملاقي جزاء كدحك ، أى عمك - ثبوراً : هلاكاً ليستريح - يصلئ سعيراً : يدخل ناراً مستعرة سرورا : أى غارقاً في سروره بالشهوات حتى نسي ما كلفه به الله - لن يحور : لن يرجع إلى الحساب يوم القيامة (٢) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

دقة الحساب :

وتبلغ الدقة في الحساب منتهى ما يمكن أن يتصور ، حتى يأخذ كل واحد جزء ما عمل من خير أو شر . سواء أ كان ذلك عملاً مارسه بالفعل ، أو عملاً نواه ، وأصر عليه ، فتقام لذلك موازين القسط ، حتى يتحقق العدل الإلهي على أكمل صورته .

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا . وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا . وَكَفَىٰ بِبَنِي آدَمَ الْعَاسِينَ » (١) .

ثم تكون عاقبة كلِّ حسب رجحان الميزان بالعمل الصالح ، أو نقصانه .

« فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ » (٢) .

الله هو الذي يتولى الحساب

والله سبحانه هو الذي يحاسب الناس جميعاً بنفسه بدون واسطة .

عن عدى بن حاتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه ، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » (٣)

وقد حدث الإمام علي كرم الله وجهه بهذا الحديث ، فقال له أحد الرجال :

يا أمير المؤمنين كيف يحاسب الله الناس كلهم في وقت واحد ؟ ! فقال : كما برزقهم في آن واحد يسألهم في آن واحد .

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧ (٢) سورة المؤمنون الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي

رحمة الله بالمؤمن عند الحساب

والمؤمن لا يناقش الحساب رحمة به رشفقة عليه لأن من نوقش الحساب عذب
قيل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله يقول في النجوى^(١) ؟ قال : سمعته يقول :
« يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه^(٢) ، فيقول : أعملت كذا
وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقرره^(٣) ، ثم
يقول : إني سترت عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى صحيفة حسناته ،
وأما الكفار فينادى على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة
الله على الظالمين^(٤) »

عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقات : يا رسول الله أليس قد قال
الله تعالى :

« فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . »

فقال : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة
إلا عذب . »

الحوض :

إن لكل نبي حوضاً يشرب هو وأمته منه بعد الموقف ، وقبل دخول الجنة .
ولدينا حوض كذلك ، ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب من

(١) المراد بها هنا مناجاة الله لعبده المؤمن في الآخرة (٢) ستره

(٣) أى يقرره بذنوبه . (٤) رواه البخارى ومسلم .

المسك ، من شرب منه شربة لا يظماً بعدها أبداً .

فمن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أنا فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لا يظماً أبداً ،

لَيَرِدَنَّ عَلَى أَقْوَامٍ أَعْرَفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي ، تم يحال بيني وبينهم ، فأقول إنهم مني ^(١)

فيقال : لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سَحَقًا سَحَقًا لِمَنْ غَيْرِ بَعْدِي ^(٢) »

الصراط :

روى مسلم والترمذي : « أن عائشة تلت هذه الآية « يوم تبدل الأرض غير

الأرض والسموات . . . الخ قالت : يا رسول الله أين يكون الناس ؟ قال

على الصراط »

وهو طريق يوضع على ظهر جهنم ، يمر عليه الأولون والآخرون بعد انصرافهم من

الموقف ، فأهل الجنة يمرون عليه ، وهم متجهون إليها ، وأهل النار يسقطون فيها .

« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » ^(٣) .

وفي حديث الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« يضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم

يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم . وفي جهنم كلاليب مثل شوك

السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم . »

(١) أي من أمتي

(٢) أي بعد المن ارتد عن دينه . والحديث رواه البخاري ومسلم

(٣) سورة ص ١٠

الجنة والنار

- النار
- أهوال الجحيم
- نسبة نار الدنيا إلى نار الآخرة
- أهون الناس عذابا
- المؤمن لا يخذل في النار
- الشفاعة للمصاة
- التخاطب بين أهل الجنة وأهل النار
- آخر من يدخل الجنة وآخر من يخرج من النار
- الجنة
- أهلها
- نعيمها
- أعلى نعيم الجنة
- الخلود

إذا كان الله سبحانه يكافئ الأبرار بالنعيم ، فإنه يجازى الفجار بالجحيم ، عقاباً لهم على ما اقترفوا من كبائر الإثم والفرأحش .

والجحيم هذه هي دار العذاب :
وتسمى الهاوية :

والهاوية : هي المكان المنخفض كثيراً الذي لا يرجع من يسقط فيه :
« وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ . نَارُ حَامِيَةٍ » (١)

وتسمى السعير :

« وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ » (٢)

وتسمى لظى :

« كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَىٰ لَنَزَّاعَةَ اللَّسْوَىٰ . تَدْعُو مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّىٰ . وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ » (٣)

أى أنها شديدة نزع جلدة الرأس ، وتجذب إليها من أعطى ظهره للحق ، وتولى منصرفاً عن الطاعة ، وجمع المال ، ووضع في وعاء ؛ لشدة حرصه عليه ، وافتنانه بالدنيا .

وتسمى سقر :

« سَأْصَلِيهِ سَقَرًا . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرًا . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَاحِيَةٌ
لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » (٤)

أى أنها لا تبقى على شيء ما يطرح فيها بل تحرقه ، ولا تتركه يخرج منها ، وأنها تسود الجسم وتشوهه .

(٢) سورة الملك آية ٥

(١) سورة القارعة الآية ٨ — ١١

(٤) سورة المدثر الآية ٢٦ ، ٣٠

(٣) المعارج الآية ٥ — ١٨

وتسمى الحطمة :

« لِيُنذِرَ فِي الْحُطْمَةِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ ^(١) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ^(٢) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ^(٣) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ^(٤) »

أهوال الجحيم

وقد وصف الله الجحيم وصفا تشبب منه النواصي ، وتنخلع منه القلوب ، كى يرتدع الغاؤون عن غيهم ، فذكر أن وقودها الناس والحجارة .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ^(٥) »

وأنها لا تشبع مما يلقى فيها، بل تطاب المزيد دائماً ، حتى لا يبقى فيها مكان خال
« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ ، وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ^(٦) »

قال مجاهد : ليس هناك قول ، وإنما جرى الكلام على سبيل تمثيل حال جهنم بأنها امتلأت حتى لم يبق فيها مكان خال

وأن طعامهم الزقوم : وهي شجرة من أخبث أنواع الشجر المر المقتن الراحة
« أَدْلَكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ^(٧) لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَا كِيلُونَ مِنْهَا فَمَا لُونُ مِنْهَا الْبَطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ^(٨) »

(١) الحطمة : كثير التحطيم والتكسير لما يلقى فيها

(٢) الموقدة الملتببة التهايا شديداً (٣) مؤصدة : أى مغلقة .

(٤) فى عمدٍ ممددة : أى مغلقة بعمد طويلة فلا يخرج منها من يدخل فيها .

(٥) سورة التحريم الآية ٦ (٦) سورة ق الآية ٣٠

(٧) أى محنة للظالمين بإرغامهم على الأكل منها

(٨) سورة الصافات الآية ٦٠ - ٦٧

« إِنَّا عْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . وَإِنْ يَسْتَفِيثُوا يُعَاقَبُوا
بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا » (١)

وثيابهم من نار !

« هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ
يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ
مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » (٢)

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
« إن الجحيم ليصب على رؤوسهم ، فينفذ الحميم ، حتى يخلص إلى جوفه ،
فيسلت ما في جوفه ، حتى يمرق من قدميه . وهو الصهر ثم يعاد كما كان » . (٣)

وجهم تحيط بالمعذبين من كل جانب ، فهي فراش وغطاء :

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ
وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ
لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ » (٤)
« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يَخُوفُ اللَّهِ بِهِ
عِبَادَهُ يَاعْبَادِ فَاتَّقُونِ » (٥)

وأهل جهنم لا يموتون ، فيستريحون ، ولا يحميون الحياة الهنيئة !

(١) سورة الكهف الآية ٢٩ (٢) سورة الحج الآية ١٩ - ٢٢

(٣) رواه الترمذی وقال : حسن صحيح (٤) سورة الأعراف الآية ٤١

(٥) سورة الزمر الآية ١٦

« وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ كُكْبَرَى ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى » (١)

وأهل النار محبوبون عن الله

« كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » وهذا هو أشد أنواع العذاب .

وفي الآية الكريمة يقول الله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا فَضَجَتْ جُلُودُهُمْ
بِدَانَتَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا » (٢)

ففي هذه الآية - أن النار كلما أكلت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ، والسبب في ذلك أن أعصاب الألم هي الطبقة الجلدية ، أما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية ، فالاحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً ، بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كثيراً ..

فالله تعالى يقول لنا : إن العار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب يجده كى يستمر الألم بلا انقطاع ؛ ويذوقوا العذاب الأليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان « وكان الله عزيزاً حكيماً » (٣)

ومن شدة الهول ، وقسوة العذاب يود المجرم أن يفدى نفسه بكل حبيب لديه وعزيز عليه ، ولكن لا يفتع فداء ، ولا يقبل رجاء .

« يودُّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه . وصاحبه . وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم يُنجيه . كلاً » (٤)

(١) سورة الأعلى الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ (٢) سورة النساء الآية ٥٦

(٣) انظر كتاب الطب والاسلام للدكتور عبد العزيز إسماعيل

(٤) سورة المارج الآية ١١ - ١٥ .

نسبة نار الدنيا إلى نار الآخرة

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« نارُكُمْ هذه التي تُوقَدُونَ جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا :
والله إن كانت لكافية يارسول الله . قال : فإنها فضلت ^(١) بتسعة وستين جزءاً كلهن
مثل حرّها ^(٢) » .

أهون الناس عذاباً

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« أهون الناس عذاباً من له نعلان ، وشرأ كان من نار ، يغلَى منها دماغه
كما يغلَى المرْجَلُ ، ما يرى أن أحداً أشدُّ منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً ^(٣) » .

المؤمن لا يخلد في النار

جاء في السنة الصحيحة أن المؤمن لا يخلد في النار .

فإن كان قد ارتكب بعض الكبائر ولم تُكفَّرْ بحدٍّ ، أو توبة نصوح ، أو مصيبة
أو مرض ، أو شيء من المكفرات ، فهو محاسب على عمله ، والله يوازن بين أعماله الصالحة
وبين جميع معاصيه التي لم يقب منها ، فإن رجحت حسناته فهو في الجنة ، وكذلك
إذا تساوت حسناته وسيئاته :

« ونضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقالَ
حبةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين ^(٤) » .

(١) فضلت : زادت . (٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى . (٤) سورة الأنبياء آية ٤٧

وإن رجعت سيئاته فإنه يدخل النار ، فيعذب فيها بقدر ما ارتكب من إثم ، ثم يخرج منها بعد أن يتطهر ، ويعد أن يوفيه الله جزاءه بمقتضى عدله وحكمته .

فمن أبي سعيد الخدري ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى :

« أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . فيخرجون منها قد اسودوا ، فيلقون في نهر الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ^(١) .

ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية ^(٢) »

وعن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار ، من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن ذرة من خير ^(٣) »

الشفاعة للعاصي

ثم يشفع الرسول بعد أن يأذن الله له ، وبعد انتهاء ، مدة العذاب في خروج العاصي من النار ، فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم ،

(١) أى أنهم يخرجون بعد ما يغمسون في نهر الحياة وأجسامهم نظرة فرحين بعودة الحياة .

(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

يشفع لأهل الكبائر بعد دخولهم النار ، فيقبل الله شفاعته فيهم ، ويخرجهم منها .
وتكون الشفاعة إظهاراً لكرامة الشافع عند الله ، وإظهار فضله صلى الله عليه
وسلم ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها . وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى
فى الآخرة » رواه البخارى ومسلم وزاد مسلم « فى نائلة إن شاء الله تعالى من مات
من أمتى لا يشرك بالله شيئاً »

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
« يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة
يسمون الجنةيين »^(١) .

التخاطب بين أهل الجنة وأهل النار

وبعد أن يستقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار يدور بينهم حوار
ومناقشة ، فيذكر كل واحد ما كان منه من عمل فى الدنيا ، وما ناله من جزاء
فى الآخرة .

ولا يقال كيف يتم التخاطب بين الفريقين مع البعدين الجنة والنار ، ومع
التفاوت الكبير بينهما ، فان ذلك شأن من شئون الآخرة التى لا اطلاع لنا عليها ،
ولا علم لنا بها ، والله سبحانه سيطور خلق الإنسان ويجعله على صورة أخرى غير
الصورة المعهودة ، ويعطيه حواس أخرى أقوى من حواسه التى أعطاها إياه فى

(١) رواه البخارى وأبو داود والترمذى وابن ماجه وسُموا بهذا الاسم
لبيذكروا ما كانوا فيه من عذاب ، وما أدركوه من نعيم فيزدادوا فرحاً وسروراً .

الدنيا وقد استحدث أخيراً ما يقرب هذا من أمثال أجهزة التلفزيون ، فالناس مع بعد بعضهم عن بعضهم يتمكنون بواسطتها من المشاهدة والسماع

« نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَىٰ أَنْ نُبَدَّلَ
أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيَمَا لَا تَعْلَمُونَ » . (١)

وفي القرآن الكريم إخبار عما يدور بين أهل الجنة والنار من خطابٍ مع وجود سورٍ فاصل بينهما ، فهو من جهة أهل الجنة فيه الرحمة ، ومن جهة أهل النار فيه العذاب . فتؤمن بذلك ونكل علم حقيقته إلى علام الغيوب .

يقول الله تعالى :

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
شُرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا
نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ
بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ، ينادونهم
أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ، قَالُوا : بَلَىٰ ، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ
وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ، حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ .
فَالْيَوْمَ لَا يُوْخِذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا وَأَكُمُ النَّارُ هِيَ
مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » (٢) .

وفي مشهد آخر يعرض القرآن لونا من ألوان الخطاب بين أهل الجنة وأهل النار .

« وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ . فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا . وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ » (١) .

ثم بعد ذلك يقول القرآن الكريم :

« وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ . الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَاَلْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » (٢) .

آخر من يدخل الجنة ، وآخر من يخرج من النار

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ويكبو مرة ، وتسفمه (٣) النار مرة ، فإذا جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الله الذى نجانى منك ، لقد أعطانى الله تعالى شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين ، فترفع له شجرة فيقول : يا رب أدنى من هذه الشجرة لأستظل بها وأشرب من مائها . فيقول الله : يا ابن آدم القى إن أعطيتكها تسألنى غيرها ؟ فيقول : يا رب لا أسألك غيرها . ويعاهده ألا يسأله غيرها ، وربّه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه ، فيدنيه منها فيستظل بظلها ، ويشرب من

(١) سورة الأعراف آية ٤٤ - ٤٥ (٢) سورة الأعراف آية ٥٠ - ٥١

(٣) تسفمه النار : أى تلفحه لفحاً خفيفاً يغير بشرته

مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: يارب أدنى من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول يا بن آدم ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ لعلي، إن أعطيتك منها تسألني غيرها. فيعاهده ألا يسأله غيرها، وربّه يعذره لانه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين. فيقول: يارب أدنى من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها. فيقول: يا بن آدم ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ قال: بلى يارب لا أسألك غيرها. وربّه يعذره، لأنه رأى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها.

فإذا أدنى منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أى يارب أدخلني الجنة، فيقول: يا بن آدم ما يصربني^(٢) منك، أيرضيك إن أعطيتك قدر الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: يارب أنتهزى بي، وأنت رب العالمين، فضحك ابن مسعود فقال: ألا نسألوني مِمَّ ضحكك؟ فقيل مِمَّ تضحك؟ فقال: هكذا ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: مِمَّ تضحك؟ فقال: مِمَّ ضحك رب العالمين حين قال: أنتهزى بي وأنت رب العالمين، فيقول: إني لا أستهزى بك، ولكني على ما أشاء قادر — أخرجّه مسلم.

الجنة:

الجنة في الأصل: البستان من النخل أو الشجر.

وهي مأخوذة من جنّ إذا ستر، وسميت بذلك لأن نخيلها الباسقات وأشجارها المورقة تلتف أغصانها. بعضها ببعض، فتكون كالظلة تستر ما تحتها.

(١) ما يصربني منك: أى ما الذى يرضيك ويقطع مسألتك

والمقصود بالجنة هنا الدار التي أعدها الله للمتقين جزاء لهم على إيمانهم الصادق،
وعملهم الصالح :

وقد أطلق عليها القرآن عدة أسماء . فهي : جنة المأوى ، وجنة عدن
(إقامة وخلود) ، ودار الخلود ، والفردوس ، ودار السلام ، ودار المقامة ، وجنات
النعيم ، والمقام الأمين .

وجاء في القرآن الكريم أن عرضها السموات والأرض .

وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم . سئل عن مكان النار إذا كانت الجنة
عرضها السموات والأرض ؟ فأجاب بقوله صلى الله عليه وسلم :
« سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار » .

أهلها :

والجنة لا يدخلها إلا من قام بجلائل الأعمال ، واتصف بكرائم الصفات .

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ . فَاسْتَبَشِرُوا ببيِعِكُمْ
الَّذِي بَاعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ
السَّائِحُونَ الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشَرَ الْمُؤْمِنِينَ » (١) .

نعيمها :

وصف الله الجنة بأن نعيمها دائم ، وسرورها لا ينفد ، وكل ما فيها بغير حساب .
فأنهارها كثيرة ثمرّة : ففيها أنهار من ماء غير آسن^(١) ، وأنهار من لبن لم
يتغير طعمه ، وأنهار من خمرٍ لذّة للشاربين ، وأنهار من عسلٍ مُصنّى .

وهذه الأنهار تجري من تحت القصور ؛ وفيها الفواكه ، ولحوم الطيور .
وكما رُزق أهلها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً

يمائل بعضه بعضاً في الحسن والجودة :

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ
وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »^(٢) .

وأن الرزق الذي يقدم لهم من الطعام والشراب يطوف به خدم من ولدان ،
إذا رأيتهم حسبهم لفرط جاهلهم لؤلؤاً منثوراً ، وهؤلاء الولدان يحملون صحافاً
وأواني من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهي النفس وتلذذ الأعين

ولباسهم فيها حرير من سفدس واستبرق . وحليتهم الذهب . ومساكنهم طيبة .
وهي غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار .

وأصحاب الجنة هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك يتكئون ، وهؤلاء الزوجات
ينشئن الله إنشاءً عرباً أتراباً ، كما ينشئ معهم الحور العين ، كأنهن بيض مكنون
وهن مطهرات من عيوب نساء الدنيا ، فلا حيض ، ولا نفاس ، ولا دامة خلقي ،
ولا سوء خلقي .

(١) آسن : متغير الطعم والرائحة (٢) سورة البقرة الآية ٢٥

وأهل الجنة نزع الله من صدورهم الغلّ إخواناً على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب ، وما هم منها بمخرجين .

والجنة لا يسمع فيها اللغو ، ولا التائم ، وإنما يسمع فيها تقديس الله ، وإجلاله .
وسلام الله على المؤمنين ، وسلام بعضهم على بعض .

« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » (١) .

وقد جاء في الحديث الذي رواه البخارى ومسلم والترمذى ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

« إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ولا يمتخطون . أمشاطهم الذهب ورشحهم (٢) المسك ، ومجامرهم (٣) الألوة (٤) أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً في السماء » .

وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم لأصحابه : « ألا مشمر للجنة ؟ فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلأأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام أبداً ، في حبرة (٥) ونضرة (٦) ، في دور عالية سليمة بهية » .
قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله . قال : قولوا : إن شاء الله ، ثم ذكر الجهاد وحض عليه (٧) .

(١) سورة الرعد آية ٢٤ (٢) الرشح : العرق . (٣) الجامر : مواضع البخور .

(٤) الألوة : العود . (٥) الحبرة : النعمة وسعة العيش .

(٦) نضرة : البهجة والحسن . (٧) رواه ابن ماجه .

نعيم الجنة فوق ما يتصوره العقل :

وهذا النعيم المذكور جاء على مثال ما هو معروف في هذا العالم الأرضي ، وإن كان أرقى منه نوعا وشكلا وطعما ، وحقيقته فوق ما يتصوره البشر

روى البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

« أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على

قلب بشر . اقرأوا إن شئتم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين »^(١) .

فنعيم الآخرة لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا .

فهو وإن شابهه في الاسم فهو مختلف عنه في الصفة .

قال ابن عباس رضى الله عنهما في تفسير قول الله سبحانه :

« وَأَتُوا بِهِ مُمْتَسِكِينَ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »^(٢) .

لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء .

أعلى نعيم الجنة :

وأعلى نعيم أهل الجنة هو رؤية الله عز وجل ، ومناجاته ، والفوز برضاه .

« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »^(٣)

« إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ

(١) سورة السجدة آية ١٧ : وقرة العين كناية عن السرور .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥

(٣) سورة القيامة آية ٢٢ ، ٢٣

قال :

« رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ : لَنْ تَرَانِي . وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ
فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا
وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا . فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » (١)
وذهب ابن عباس رضى الله عنهما - وكثير من أهل العلم إلى أن سيدنا محمداً
صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة أُسْرِىَ به .

قال ابن عباس رضى الله عنهما - فى قوله تعالى :

« وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » (٢) .

قال : « هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِىَ به »

رواه البخارى

وكان الحسن يحلف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه
وأنكرت السيدة عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
رأى ربه .

فمن مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها :

« يا أمّته . هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قَفَّ (٣) شعرى مما قلت أن أنت

من ثلاث :

من حدّثكهن فقد كذب :

من حدّثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت :

« لَا تَدْرِكُهُ الْإِبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْإِبْصَارَ » (٤) .

(١) سورة الإعراف آية ١٤٣ (٢) سورة الإسراء آية ٦٠

(٣) قف : أى قام شعر رأسى وشعر بدنى من الفزع

(٤) سورة الأنعام آية ١٠٣

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت .
« وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » (١) .

ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ، ثم قرأت :
« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » (٢) .
ولسكنه رأى جبريل في صورته مرتين (٣) .

الخلود

والجنة خالدة لا تفتنى ، وكذلك النار ، وأهل كل منهما مخلدون ، لا يدرکہم الموت ولا يلحقهم الفناء .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَاتُكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ .

« فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٍ مَجْدُودٍ » (٤) .

وسرخلود أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار أن كلا من الفريقين كان مصراً على ما هو عليه ، فأهل الجنة كانوا مرئدين الإيمان والطاعة مهما طالت بهم

(١) سورة لقمان آية ٣٤ (٢) سورة المائدة آية ٦٨

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي

(٤) سورة هود من الآية ١٠٣ - ١٠٨

الحياة ، وامتد بهم العمر ، وأهل النار كانوا مصرين على الكفر والمصيان ، ولو عاشوا ملايين السنين ، فكان الجزاء للفريقين على الإرادة والنية وبمقتضى هذه الإرادة والتقسيم كان الخلود إذ أن الإيمان والكفر وما يستتبعانه من أعمال قد تمكن من النفس تمكدا لا يزول .

ولقد صور القرآن هذا التمكن فذكر أن الكفار لو رجعوا إلى الدنيا بعد معاينتهم العذاب لعاد وإلى ما كانوا عليه من الكفر وسوء العمل :

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » (١) .

والأصل في كون الجزاء على الإرادة والنية قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :
« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى »

حائمة (*)

وبعد : فإن سلوك الإنسان وتصرفاته في الحياة مظهر من مظاهر عقيدته .
فإذا صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام ، وإذا فسدت فسد واعوج ، ومن ثم
كانت عقيدة التوحيد والإيمان ضرورة لا يستغنى عنها الإنسان ليستكمل شخصيته
ويحقق إنسانيته .

ولقد كانت الدعوة إلى هذه العقيدة أول شيء قام به رسول الله صلوات الله
وسلامه عليه ؛ لتكون حجر الزاوية في بناء الأمة المسلمة . كما كانت أول شيء قام به
رسل الله جميعا ، ذلك أن رسوخ هذه العقيدة في النفس الإنسانية يسمو بها
عن الماديات الوضيعة ، ويوجهها دائما وجهة الخير والنبيل ، والنزاهة والشرف .

وإذا سيطرت هذه العقيدة ، أثمرت الفضائل الإنسانية العليا من الشجاعة
والكرم ، والسماحة ، والطمانينة ، والإيثار ، والتضحية .

والتمكن لهذه العقيدة هو الذي يهذب الحياة ، ويرقيها ، ويصل بها إلى المدنية
الحقة ، ويبلغها ما تنشده من الخير والتقدم ، وما تستهدفه من الحق والعدل ، فينعم
الفرد ، وتسعد الجماعة ، وتحيا الحياة الطيبة .

« مَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰةً
طَيِّبَةً » (١)

(*) ماخص مما كتبناه في كتاب إسلامنا .

(١) سورة النحل آية ٩٧

وفي ظلال العقيدة تتوافر عناصر الارتقاء المادى والروحى ، ويجد الانسان من
عناية الله وولايته وكرامته ما يبلغه ذروة الكمال الذى اراده الله له .

« اللَّهُ رَلَى الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، (١)
« وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٢)

والعقيدة مثلها مثل الشجرة الطيبة التى لا ينقطع ثمرها ، فهى تؤتى أكلها كل
حين : فى صيف أو شتاء ، ليل أو نهار ، والمؤمن كذلك لا يزال يرفع له عمل صالح
فى كل وقت وحين . ولهذا كثر فى القرآن الكريم اقتران الإيمان بالعمل الصالح ،
لأنه ثمرة من ثماره ، وأثر من آثاره . وما أصدق قول الله سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا
ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (٣)

ولقد كان لعقيدة الإيمان فى تربية المؤمنين الأولين الأثر الكبير ، فهى التى
زكت النفوس ، وطهرتها من الحسد والحقد ، والكبر والعجب ، والفسق والفحش ،
والظلم والجور ، والقسوة والغلظة ، والأثرة والأنانية .

وهى التى خلصتهم من درن التربية الفاسدة ووضر البيئة الرديئة ، وشر
الوراثات الدنيئة .

وهى التى أعلت همهم ، فطلبوا معالى الأمور ، ووطنوا أنفسهم على إمامة

(١) سورة البقرة ٢٥٦ (٢) سورة الحج ٥٤

(٣) سورة ابراهيم آية : ٢٤ ، ٢٥

البشر، وقيادة الأمم وتحريرها من الخرافات، واستبدال الملوك، وتطهير الأرض من الكفر والفساد.

وهي التي مكنت لهم من الفتح والظفر، والعلم والعمل، وإقامة الحضارة التي شع نورها، وعم خيرها مشارق الأرض ومغاربها، في سنين تعد على الأصابع.

قال الدكتور غوستاف لبون في كتابه (تطور الأمم):

«إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال:

أولها: جيل التقليد.

ثانيها: جيل الحضرة.

ثالثها: جيل الاستقلال والاختصاص.

إلا العرب وحدهم، فقد استحكت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدءوا فيه بمزاوتها».

وما أصدق ما قاله النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا
وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

ما للظهر يا أبا ليلى؟

قال: الجنة.

قال: إن شاء الله...!

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣١	اسم الله الأعظم	٥	مقدمة
٣٥	الذات الإلهية	٧	الإسلام إيمان وعمل
٣٧	استحالة إدراك الذات	٨	مفهوم الإيمان
٣٩	الطبيعة تؤكد وجود الخالق	٨	وحدة العقيدة
٤٦	الفطرة دليل وجود الله	٩	لماذا كانت العقيدة واحدة وخالدة
٤٧	دلالة الواقع والتجارب	١٢	منهج الرسل في الدعوة إلى الإيمان
٤٧	التأييد الإلهي	١٣	الانحراف عن منهج الرسل وأثره
٤٨	شواهد النقل	١٥	ضرورة العودة إلى تجديد دعوة
٤٨	لا سند للحاد		الإيمان
٤٩	اعتراف العلماء المحدثين بوجود الله	١٧	معرفة الله
٥٠	صفات الله	١٩	وسيلة المعرفة
٥٣	الصفات السلبية	١٩	المعرفة عن طريق العقل
٦٤	بدء الخلق في رأي علماء الشرع	٢١	التقليد حجاب العقل
٦١	الثالوث عقيدة وثنية	٢١	مبادئ التفكير
٦٥	الصفات الثبوتية	٢٢	غاية التفكير
٧١	صفات الذات والأفعال	٢٣	المعرفة عن طريق معرفة الأسماء
٧٢	صفات الله أعلام هادية		والصفات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٩	عملهم في عالم الطبيعة	٧٧	حقيقة الايمان وثمرته
١٢٨	الإيمان بهم	٧٩	مظاهر الإيمان
١٣١	الجن	٨٤	ثمار الإيمان
١٣٣	من هم؟	٩١	القدر
١٣٣	طريق العلم بهم	٩٣	الله فاعل مختار
١٣٣	المادة التي خلقوا منها	٩٥	معنى القدر
١٣٤	طوائفهم	٩٦	وجوب الإيمان بالقدر
١٣٥	الجن مكلفون كالبشر	٩٦	حكمة الإيمان بالقدر
١٣٥	استماعهم القرآن من الرسول	٩٩	حرية الإنسان
١٣٧	الجن لا يعلم الغيب	١٠١	الإسلام يقرر حرية الإرادة
١٣٨	تسخير الجن لسليمان	١٠٥	بين مشيئة الرب ومشيئة العبد
١٣٩	إبليس والشياطين	١٠٦	الهداية والإضلال
١٤٣	كل إنسان معه شيطان	١٠٩	الملائكة
١٤٤	الأعراض عن هداية الله يمكن للشيطان	١١١	من هم الملائكة؟
١٤٥	التحذير من عداوة الشيطان	١١٢	م خلقوا؟
١٥١	لا سلطان للشيطان على المؤمنين	١١٣	فضل البشر على الملائكة
١٥٣	مقاومة الشيطان	١١٤	طبيقتهم
١٥٥	حكمة خلق إبليس	١١٥	تفاوتهم
١٥٧	الكتب السماوية	١١٦	عملهم
١٥٩	الكتب المدونة	١١٦	عملهم في عالم الأرواح

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢١٣	الفرق بين آيات الرسل وغيرها	١٦٣	القرآن الكريم آخر الكتب
	من الحوارات	١٦٣	مزايا القرآن
٢١٤	الفرق بين المعجزة والكرامة	١٦٦	تحريف التوراة
٢١٥	معجزة خاتم الأنبياء	١٦٨	تحريف الإنجيل
٢٢١	الروح	١٦٨	تصديق القرآن للكتب السابقة
٢٢٣	الإنسان جسد وروح	١٦٩	الطريق إلى الحقيقة
٢٢٤	العلم الحديث والمباحث الروحية	١٧١	الرسول
٢٣٤	حدوث الروح	١٧٣	الإيمان بجميع الرسل
٢٣٤	الروح والنفس	١٧٥	لكل أمة رسول
٢٣٦	الروح بعد مفارقتها للجسد	١٧٦	الرسول بشر
٢٣٧	السؤال في القبر	١٧٨	الرسول رجل
٢٤٠	مستقر الأرواح	١٧٨	الغرض من بعثة الرسل
٢٤٣	أشراط الساعة	١٨٠	عصمة الأنبياء
٢٤٥	العلامات الصغرى	١٨٣	مانسب إلى الرسل
٢٤٨	العلامات الكبرى	١٩٨	أولو العزم من الرسل
٢٥٠	المهدى	١٩٨	أفضل الرسل
٢٥٣	خروج المسيح الدجال	١٩٩	ختم النبوة والرسالة
٢٥٧	اليوم الآخر	٢٠٠	الأعمال الكبرى التي قام بها خاتم الرسل
٢٥٩	الإيمان باليوم الآخر	٢٩١	دلائل صدقه
٢٥٩	لم يخلق الإنسان عبثاً	٢٠٥	التبشير بظهور خاتم الرسل
		٢٠٨	آيات الرسل

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٨٧	الحوض	٢٦٠	مفهوم اليوم الآخر
٢٨٧	الصراف	٢٦٠	اهتمام القرآن به
٢٨٩	الجنة والنار	٢٦٤	حكمة الاهتمام به
٢٨٩	النار	٢٦٥	بداية اليوم الآخر
٢٩٢	أهوال الحجيم	٢٦٦	العلم الطبيعي واليوم الآخر
٢٩٥	نسبة نار الدنيا إلى نار الآخرة	٢٦٦	متى هو؟
٢٩٥	أهون الناس عذاباً	٢٦٩	البعث
٢٩٥	المؤمن لا يخلد في النار	٢٦٩	أدلة البعث
٢٦٩	الشفاعة للعصاة	٢٧١	شبهة منكرى البعث
٢٩٧	التخاطب بين أهل الجنة وأهل النار	٢٧٢	اختلاف اناس عند البعث
٢٩٩	آخر من يدخل الجنة وآخر من يخرج من النار	٢٧٣	الشفاعة
٣٠٠	الجنة	٢٧٧	الحساب
٣٠١	أهلها	٢٧٩	الحساب هو مقتضى العدل الإلهي
٣٠٢	نعيمها	٢٨١	كيفية الحساب
٣٠٤	أعلى نعيم الجنة	٢٨٤	كيفية إحصاء الأعمال وعرضها
٣٠٧	الخلود	٢٨٥	العلم وتسجيل الأعمال
٣٠٩	خاتمة	٢٨٦	دقة الحساب
		٢٨٦	الله هو الذى يتولى الحساب
		٢٨٧	رحمة المؤمن فى الحساب